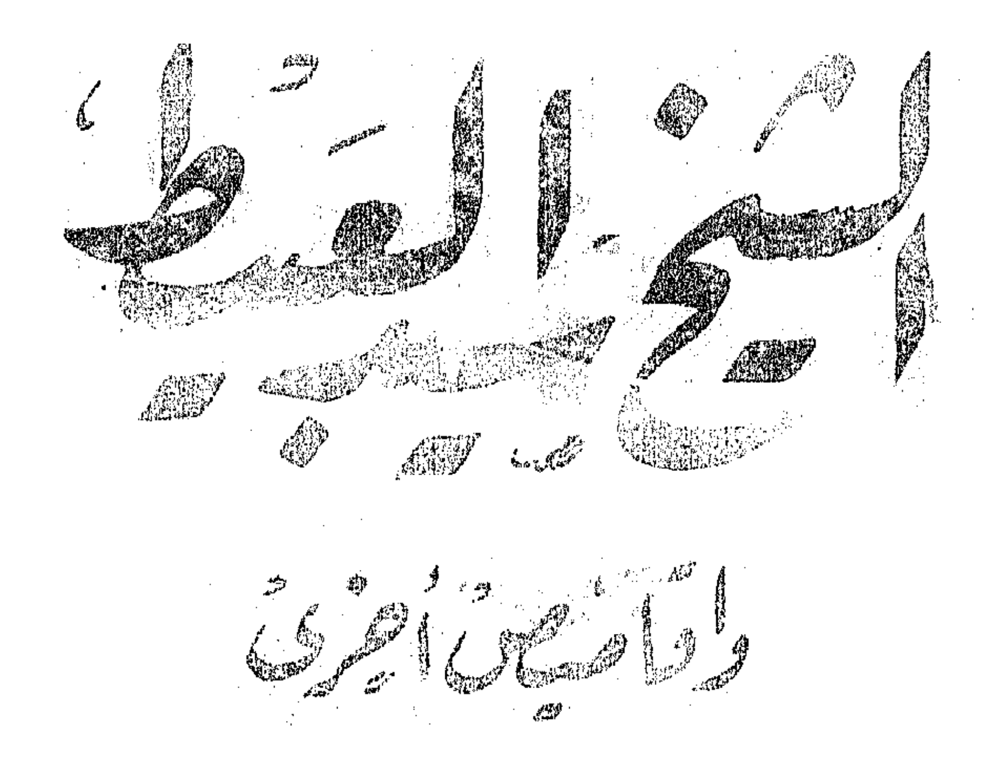


مصدرة بمقدمة عن نشوء وتطور البلاغة القصصية



مصحوبة بمقدمة عن نشأة وتطور البطل في القصة

القاهرة

١٣٤٤ — ١٩٢٦

المطبعة السلفية ومكتبتها



الشيخ سيد العبيط



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

في مجموعتي القصصية الاولى المسماة « الشيخ جمعه وقصص أخرى » كتبت كلمة افتتاحية ضمنتها بعض ما جال بخاطري عن الاقصوصة وانتشارها في عالم الأدب ، ومستقبل الاقصوصة والقصة ، وفائدة القصص والاقاصيص على وجه عام ، وشرح المذهب الواقعي (الرياليست) وضرورة الاخذ به في التاليف القصصي ، ولغة الحوار في الاقاصيص ووجوب اختلافها عن لغة الكتابة اختلافا يزيد أو يقل بحسب ما تستلزمه الحقيقة ويتطلبه الواقع . لذلك ستكون كلمتي التي سأفتتح بها مجموعتي الثالثة « الشيخ سيد العبيط وأقاصيص أخرى » عن مواضيع تختلف عن سابقتها كل الاختلاف . ستكون كلمتي هذه عن « نشوء الاقصوصة وتطورها » في عالم الادب عامة وعن « البلاغة القصصية » في الادب العربي خاصة . ولما كان هذا البحث من الابحاث الوعرة المسالك الضئيلة المصادر المجهولة السبل فعذري في تقصيري واضح لدى القارىء الكريم . واني لمعترف له بأن ما كتبته في هذه المقدمة لا يشفي غليل الباحث المنقب الذي يريد استيعاب الموضوع بحذافيره .

ولتشابه الاقصوصة والقصة في نشئهما وتطورهما صعب على من يريد معرفة ذلك التطور تتبعهما منفردين خصوصا في الأدب العربي الذي يكاد يخلو من الاسلوب القصصي .

نشوء الاقصوصة

الاقصوصة هي القصة الصغيرة . ويغلب على الظن أنها هي والشعر أولى الظواهر الادبية التي أخرجها الذهن البشري . وقد عبر عنهما الانسان قبل أن يعرف القراءة والكتابة . فالشعر وجد اذ وجد الغناء والرقص . ففي العصور الغابرة كان الانسان الوحشي يجتمع حول النار بعد هزيمة الاعداء يرقص ويصيح احتفالا بانتصاره . فكان هذا الصياح الموقع على حركات الرقص الطبيعية أول درجة من درجات الشعر . أما الاقصوصة أو القصة فمصدرها الاساطير (الخرافات) . وبيان ذلك أن الانسان الوحشي كان يعيش في عالم مملوء باسرار الطبيعة وألغازها وكان عقله قاصرا عن ادراك كنهها . ولكنه حاول أن يحلها فتهيأ للجمادات أرواحا وشبهها بنفسه وسماها باسمائه ووصفها بصفاته وفرض الفروض التي تطابق عقليته في ذلك الوقت تفسيراً لتلك المعميات العظيمة . فالشمس التي كانت تشرق في الصباح مبددة بيوش الظلام ، جذوة ملتهبة لا يدري من أين أتت والى أين تذهب ، والريح العاصفة التي تهدم الاكواخ وتقتلع الاشجار ، والبحر الدائم الاضطراب الذي لاتهدأ له حركة ولا يسكن له هدير ، والجبال الشاهقة ذات القمم البركانية التي تفيض بالحمم والنار ، وتلك القوة الخفية التي تضطرب في بطن الارض فتزلزلها بقسوة وهول .. وكم غير ذلك من مظاهر الكون الازلية وقف أمامها الانسان الوحشي يتأملها بحيرة واندهاش ممزوجتين برعب وخوف . رهب الصخرة المنحدرة من قمة الجبل التي خلعتها الزلازل من مكانها وأرسلتها كالقذيفة على كوخه فهدمته فحسبها آدميا مثله له روح خفية ، يفاضله العداء ويستطيع أن يهلكه . وخاف كذلك بطش الريح وهو لايراها فحسبها روحا جهنمية قادرة أن تنكل به وبذرووعاته . وعبد السحاب طلبا للمطر وعبد الشمس ظانا منه أنها المسيطرة على الارواح الاخرى . وكان يرى في نومه أحلاماً كثيرة عن أشخاص ماتوا فتوهمهم أحياء مثله في عالم آخر غير منظور ، يعيشون ويأكلون ويتناسلون . فرهب الأقوياء الاشداء منهم الذين كانوا في حياتهم قادة مسيطرين وقدم لهم القرابين وأتى لهم بالاطعمة وذبح لهم

العبيد ليخدموهم ودفن معهم النساء أحياء ليتخذوهن زوجات ورفيقات ؛ وتطور الخوف فصار عبادة اذ أله ما كان يرهبه من الجمادات وأرواح الموتى ؛ وهل كانت الديانات الأولى الا أساطير خلقها الانسان حلاً لالغاز الطبيعة وتفسيرا للاحلام . اذن يمكننا القول بأن الديانات الغابرة والاقاصيص على حد سواء استمدتا ينبوعهما الاول من الاساطير . فالنوع القصصي قديم ظهر حيث بدأ الجنس البشرى يؤسس أول المدنيات . وكانت تلك الاقاصيص بطبيعة الحال قصيرة لأن خيال الانسان الغابر كان ضيقا وتعبيره ناقصا والفاظه التي كان يستعملها قليلة .

وتطورت تلك الاساطير أو الاقاصيص الخرافية بحسب تطور الانسان وتغير بيئته فجعل يتوارثها جيلا بعد جيل وينشرها بطريق المهاجرة والارتحال . ولكنه كان يغير فيها متأثراً بما يراه من حياة جديدة وحوادث مختلفة فتولدت الاقصوصة وهي مزيج من الحقيقة والخرافة وتضمنت تاريخ العظماء ووصف المعارك وذكر أهوال الحياة . ونسج الخيال الانساني أقاصيصه على منوال ماسمعه وما ورثه وما رآه فاتى بشيء جديد ظهرت فيه قوة الخيال والاختراع . ومع تشابه هذه الاقاصيص للاساطير فانها اتخذت لها صبغة محلية فجعلت بعض أبطالها من الآدميين وبعض حوادثها وأوصافها من حوادث العصر الذي عاش فيه مؤلفها وأوصاف الحياة في وقته . لذلك كانت لها بعض القيمة الادبية .

كلمة عامة عن الاقاصيص والقصص

كل منا حينما كان صغيرا كان يميل بطبيعته لسماع الاقاصيص . وهل نسينا أقصوصة « الغول » أو أقصوصة « صاحب اللحية الزرقاء » وما شابههما ، تلك الاقاصيص الخالدة في أذهان العجائز التي تتجدد دائما كلما يلى رداؤها . تلك التي يرويها الشرقي فيلبسها ثوبا شرقيا ، ويرويها الغربي فيلبسها رداء غربيا ويرويها الوحشي فيلبسها جلبابا وحشيا . وهى هى واحدة في ذاتها لها حادثة واحدة وان اختلفت الوان زمانها ومكانها و أشخاصها . هذه الاقاصيص هى الارث العظيم الذى ورثناه من أزمنة غابرة ، بعضه يستمد أصوله من أقدم عصور

المدنيات الاولى اى من فجر التاريخ والبعض أخذناه من العصور الوسطى أيام عهد الاقطاعات في الشرق والغرب . فما « الغول » الا رمز للحيوان المخيف الذى كان يفترس أجدادنا حينما كانوا يسكنون المراج والاحراش والاكواخ ، والذى ظل يحارب الانسان حربا متواصلا . هذه صورة غامضة طبعها الخوف المتوالى في ذهن الانسان حتى أصبحت كالغريزه في قوتها وتأثيرها . وما كان « صاحب اللحية الزرقاء » شارب الدماء السفاح الا رمزا للملوك وامراء الاقطاعات من البربر الهمج الذين كانوا يسومون الافراد أفظع أنواع العذاب .

فالاقاصيص التي ترويها الجدة العجوز وهى تحيك ثيابها أو تطرز وشيها والحكايات التي يحكيها الجد الهرم وهو بنزله بعزله أو يدخن لفائف التبغ في حجرته هى : أولا مجموع ما ورثناه من أساطير قديمة تمثل « الغول » و « الجان » وأهوال الحياة التي عاشها الانسان الاول ، وثانيا ما سمعناه من حوادث تاريخية عن حياة الابطال ووقائع الحروب وهيبة الامراء والملوك وحياة الاسرى والمسجونين . فغول الاقصوصة هو الغول القديم الذي لا نعرف شكله وانما نشعر بوحشيته ، وبطلها هو أحد أبطال التاريخ البسه الراوي ملابس الزمن الذي اختاره . وبالرغم مما حوته كثيرا من هذه الاقاصيص من السخافة والعبث فقد عبرت عن نفسية العهد الذي كتبت فيه . فأقاصيص البطولة كثرت في عهد الفروسية والحروب وأقاصيص الدين انتشرت في عهد الحروب الصليبية وما ماثلها . وهلم جرا . وربما اخترعت الامة المظلومة بطلا رهميا يحاكي الابطال القدماء ونسجت من حياته قصة نصر وهمية تفرج به عن كربها وتعبر به عن آمالها ومطامعها . ولذلك اذا بحثت بحثا وافيا في الاقاصيص القديمة التي تناقلها الناس في العصور الوسطى والتى مازال الرواة من العجائز يروونها للاطفال اليوم تراها مفعمة بحوادث الحرب والقتال والغدر والانتقام . السيف والنطع والرمح والسهام هى أساس القصة وعمادها . نستدل من هذا كيف كانت الانسانية تتعذب دهوراً بعد دهور وأجيالا بعد أجيال بهذه الحروب الوحشية التي فتكت فتكا ذريعا ببني الانسان . ولما كان الحرب هو العامل الاساسى لبقاء الامة والحادث المهم الذي كان يملأ فراغ حياة أفرادها كانت الامم اما منتصرة تنكل باعدائها وتسومهم العذاب والقتل والتشريد واما

مخذولة ترسف في أغلالها ويستباح دماء أفرادها . لذلك انطبع في قلب الانسان فيما انطبع فيه هول الحروب ورغبة الانتقام ، فصاغ معظم حكاياته على هذا النمط وأتت بلاغته الاولى صفحة دامية بوقائع القتال . ولربما وجدت في بعض هذه الاقاصيص وتلك الاساطير خصوصا التى أتت على لسان الكهنة والوعاظ والمرشدين أوصافا شيقة وجميلة عن السلام والرحمة والعدل وعقاب الظلمة بما جنت أيديهم ومكافأة المظلومين بما يستحقون ، أوصافا خلابة هى من عمل الخيال ، صاغها بدافع النفس المتعبة التى مجت القتال وحياة الفزع والانزعاج والتشريد واشتاقت لحياة السكينة والهدوء حيث العدل والرحمة ينشران رايتهما الظليلة .

الشعر القصصي

وكان الشعر القصصي أول الاقاصيص الادبية وهو الذي يعتبرونه الاساس الاول في بناء الادب العالمي وقديما سار الشعر والاقاصيص جنبا الى جنب ، وكثيراً ما امتزجا ببعضهما فكونا فرعا واحداً من البلاغة .

ولما كان الانسان يعيش قديما ـ قبل اختراع وسائل المواصلات الجديدة ـ عيشة عزلة وانكفاف ، المدن تفصلها المسافات الشاسعة والامم لا تعرف من بعضها الا النزر القليل والنظام السياسي يفرق بين طبقات الامة الواحدة في المكان الواحد ، الاشراف بمعزل عن العامة والعامة بمعزل عن الاشراف ، كانت لرواية الاخبار والحوادث عن الامم الاجنبية حتى وعن أشخاص الامة الواحدة لها وقع عظيم في النفوس . فكان الناس متشوقين دائما لسماع ما هو غريب عنهم مما كان محاطا بالاسرار . هذه صورة للحياة الاجتماعية في العصور الوسطى فكيف بها قبل ذلك . لابد وان العزلة كانت اتم والشوق الى سماع الرواية أعظم .

وهكذا تولد ميل الانسان لسماع الاقاصيص فوجد جماعة الشعراء الرحل ليقدموا للناس ما يلذهم ويطربهم من الاخبار والحوادث الغير المألوفة . وهؤلاء الشعراء أشخاص فقراء كانت صناعتهم الانتقال من مكان الى آخر يغنون للجمهور قصص البطولة والحب . كان هؤلاء « الشعراء المرتزقة » يجمعون تلك

الاغاني القصصية من أفواه الحفاظ فيحفظونها ، وربما بدلوا وغيروا فيها ، وزادوا عليها من عندهم ، أو حذفوا منها ما وجدوه ينافي ذوق الجمهور . ومنهم من قلدها ونسج على منوالها . ولعل أول شيء يستوقف الباحث عند بحثه في تاريخ الادب عند أغلب الامم عثوره على تلك الاغاني القصصية واعتبارها الينبوع الهام الذى تفرعت منه فروع الفنون والادب . فالشاعر الرحال كان شاعراً ينظم الشعر ويلقيه وينشد الاغاني ويروى القصص ويمثل الحوادث فكان بذلك شاعرا وعازفا وقصصيا وممثلا في آن واحد .

وهاك « الالياذة » و « الاوذيسة » المنسوبتان لأبي الشعراء هوميروس اليوناني و « الانياده » لفرجيل شاعر الرومان فانها من هذا الشعر القصصي وصاحباها من هؤلاء الشعراء الرحل . وتعتبر هذه القصائد القصصية الثلاث خصوصا أولاها أبلغ ما كتب في الادب العالمي ، منها استمد الشعراء والقصصيون ومؤلفو الروايات التمثيلية قديما وحديثا وحيهم في التأليف . وهاك أيضا « أغاني رولان » الفرنسية تلك الاغاني القصصية المنظومة أول ركن من أركان الادب الفرنسى القديم فانها من هذا النوع أيضا . ورولان هذا بطل خرافي من أبطال جنود شارلمان اشتهر في الحرب التى كانت ناشبة بين العرب والفرنسيس أيام فتح الاندلس .

ويكاد يكون لكل أمة عريقة فى الحضارة من كان لها أدب قومى جليل ، قصيدة أو عدة قصائد قصصية طويلة منظومة بالشعر على مثال « الالياذة » . فلايطاليا « كوميدية دانتي الالهية » وللهند « المهابهارانا » Mahabharta وللفرس « الشاهانامة » . وهذه القصائد الثلاث لها في عالم الادب مقام رفيع . ويوجد غير ذلك في الامم الاخرى قصائد قصصية على هذا النمط لم تشتهر شهرة ماذكرناه لانها أقل قيمة ، وان كانت لهـا في الامة التي نشأت فيها مكانتها العالية . وكل هذه القصص النظمية تمثل نوعا واحدا من الشعر وهو الشعر القصصى . لذلك أتحدت فى مراميها ومضامينها فهي تروى حوادث البطولة والابطال بأسهاب ممجدة أعمال هؤلاء الابطال ومفتخرة بهم . وما هذه القصيدة الطويلة ـ وان كان يصح ان نسميها قصة واحدة ـ الا فى الحقيقة مجموعة أقاصيص ، يكاد يكون لكل اقصوصة منها موضوعها وغايتها .

والسبب الذي من اجله أحدثت جل هذه القصائد التمجيدية ان لم يكن كلها في تمجيد البطولة الحربية ان العالم القديم (وحتى عالمنا الحديث اليوم) لم يعترف بالبطولة الا لحملة السيوف والرماح من بنوا مجدهم الوحشي على جماجم الضحايا المستعبدة . وهذا دليل على أن عهد النضال الحربي الدائم في تاريخ الانسان القديم ، وسنة الطبيعة في أن الحياة للأقوى والحق في جانبه قد اضطرتنا بحكم الوراثة والسير بمقتضى قوانين الطبيعة أن ننظر الى الحرب نظرة الاكبار والى أبطالها نظرة الاجلال . ومن منا لم يسمع نشيد الموسيقى الحربي فلم يشعر بدمه يغلي في عروقه . ومن منا لم يقرأ صفحة من صفحات التاريخ المخضبة بدماء الشهداء فلم يهتج ولم يهتز هزة الطرب ناظرا الى السفاح نظرة تمجيد وتعظيم . فما أثقل ما ورثته لنا الطبيعة الظالمة من ارث ما زال يشعرنا بماضينا الوحشي حتى في عهد المدنية والنور .

الالياذة هي قصة الحرب التي دامت عشرين سنة بين طروادة

وممالك اليونان ، أثارها اختطاف « باريس » أحد أمرائها « هيلانة » زوجة ملك اسبارطة . أتى فيها هوميروس باوصاف دقيقة خلابة للجيوش المتحاربة والوقائع الناشبة وشجاعة القواد وبطولة الابطال ، تجلت فيها قوة الخيال الى أقصى حد . وقد أكد بعض النقاد ان الالياذة ليست من عمل فرد واحد بل هي مجموعة أقاصيص نظمية نظمت وجمعت بواسطة الشعراء الرحل ، تناقلتها الاذهان المتوقدة على ممر السنين حتى خرجت حثالتها ومكثت زبدتها ، فأتى هوميروس وهو من فئة هؤلاء الشعراء فرواها للناس كما وجدها . ربما كان الامر صحيحا وربما كان خلاف ذلك . فاذا فرضنا أن هوميروس لم يؤلفها جميعها فلا يبعد أن يكون هو جامعها ومرتبها ، من هذبها وصقلها ، فحذف منها المبتذل وأضاف من عنده الجيد ثم صاغها في قالب واحد تجلت فيها روح واحدة تعبر عن ذهنية واحدة . وهذا ما اتسمت به .

والأوذيسة قصة متممة للألياذة ومنسوبة للمؤلف نفسه فيها قصة « يوليسيس » (أوديسيس) وكيف ضل طريق البحر وهو عائد مع رجاله بعد انتهاء حرب طروادة ميمما بلده ليحظى برؤية زوجته « بنلوب » وابنه « تليماك » بعد غياب عشر سنين . ظل في سياحته هذه مدة عشر سنوات أخرى اجتاز فيها المخاطر وتغلب فيها على كثير من الصعوبات ثم عاد أخيرا الى وطنه وقد غاب عنه عشرين عاما فوجد امرأته وفية على عهده أمينة على حبه. وقد ذكر بعض النقاد أيضا أن هذه القصة لم يكتبها « هوميرس » لأن أسلوبها يخالف الألياذة ، وان الروح السائدة فيها روح نسائية . فاذا كانت الالياذة قد اكثرت من وصف القتال الوحشي والمناظر القاسية فالاوذيسة تغلب فيها روح العراك النسائي الذي يكثر فيه الحيلة بدلا من القوة وأسلوبها عليه مسحة اللين والمسالمة . ولكن بعضهم يرد على هذا القول بأن هوميروس نظم الالياذة وهو في ريعان الفتوة والشباب ، وذهن الشباب قوي جريء قاس لا يعرف اللين ولا الرحمة فجاءت صورة قاسية تمثل وحشية الحروب وفظائع البطولة . أما الأوذيسة فنظمها حينما كان شيخا متقدما في السن فجاءت صورة لذهنية الشيخ الهادىء الرزين الذي يعمل عمله بلين وهدوء بعد تفكير وروية .

والانيادة فهي لشاعر الرومان « فرجيل » نحا فيها نحو هوميروس وجعل حوادثها صلة بالألياذة فجاءت كأنها متممة لها . بطلها الامير « انياس » أحد امراء طروادة ابن الالهة « فينوس » . وقد نظم الشاعر قصته تمجيدا لعائلة اغسطس قيصر امبراطور الرومان في هذا الوقت إذ أتى فيها بتاريخ ملأه بالاساطير عن « انياس » الامير الطروادي الذي من سلالته مؤسس روما وامبراطرة العالم . فيها حكاية سقوط طروادة بين يدي الاغريق وكيف نجا الامير من القتل فهرب من بلده وبدأ رحلاته الشهيرة يجوب الاقطار ويركب البحار حتى وصل في النهاية الى ايطاليا فاستقر فيها . وقد امتازت هذه القصة بأن الآلهة قامت بتمثيل أدوار هامة فيها اكثر مما قامت به في الالياذة والاوذيسة . فكانت المنافسة على أشدها بين الآلهة « فينوس » أم « انياس » والاله « جونو » عدوه . فبينما كانت فينوس تحميه وتهيء له وسائل النجاة

كان جونو ينصب له المكائد ويحيطه بالاخطار ، وقد تداخلت الآلهة تداخلا غريبا في أمر هذا الامير وقامت بينهم مشاحنات تماثل مشاحنات أهل الارض ولكن « اناس » انتصر في النهاية فصحت نبوءة الاله « جوبيتر » . وقد تم لواضع القصة وناظمها تمجيد روما وامبراطرتها وانتقامها من اليونان مدمرة طروادة .

ويوجد غير هذه القصائد القصصية الثلاث قصائد أخرى تماثلها في نوعها كما ذكرنا سلفا اشهرها « الشاهنامة » لشاعر الفرس الفردوسي و« الكوميدية الالهية » لشاعر الطليان « دانتي » . فالاولى أتى فيها ناظمها باوصاف جميلة من تاريخ ملوك الفرس وأبطالها وهى تعد من آيات البلاغة العالمية . اما الثانية فهي قصة حلم خيالي للشاعر وصف فيه زيارته « للجحيم والمطهر والفردوس » مع الشاعر فرجيل وما ر[illegible]ا من اشخاص حقيقيين وخياليين من عظماء التاريخ والخيال . ووصف بها ماشاهده من انواع العذاب والوان السعادة والهناء باساليب أخاذ ودقة فائقة في رسم الاشخاص وروعة بالغة في وصف المشاهد . وقد كان الشاعر يحب فتاة تسمى « بياتريس » حبا لم نسمع بما يماثله قوة وغرابة من قبل . فقد بدأ حبه لها اذ رآها لاول مرة في منزل والدها وهي طفلة لم تتجاوز التاسعة . ومن غريب امره معها انه لم يرها الا مرتين فقط ولم تعلم هى بامر حبه . وقد تزوجت « بياتريس » ثم ماتت فكان لهذه الفاجعة الاليمة وقع شديد على قلب الشاعر . ماتت بياتريس ولكن شبحها السحري كان جاثما في قلب دانتي يوحي اليه بمبتكرات الشعر ويغذي خياله وعبقريته . فكتب الكوميدية الالهية ليخلد فيها شخصها فاتت آية فنية من آيات البلاغة . تصور الشاعر فيها تصوره في حلمه انه قابل حبيبته . لم تكن كما كان يعرفها ، بياتريس البشرية بل كانت بياتريس الملائكية ذات النغمة السماوية والجلال الآلهي . وقد نجح الشاعر في تخليد اسمها في قصيدته هذه فصار اليوم اسم بياتريس مقرونا دائما باسم دانتي وكوميديته الآلهية .

الاقاصيص والقصص النثرية

وقد اشتقت وتفرعت من هذه القصائد القصصية الكثيرة العدد أقاصيص وقصص صاغها الخيال على أساس من الحقيقة والوهم . والمعروف ان القصائد القصصية نظمت بواسطة شعراء رحل تمجيدا للعظماء والابطال وذكر حوادث التاريخ المشهورة . فكانت تنظم عادة للملوك والامراء ، ولا يهتم لحوادث العظماء الا العظماء . ففي القرون الوسطى كان هؤلاء الشعراء الرحل يقصدون قصور الامراء والنبلاء وأهل الحيثية في البلدة فيحيون لهم الحفلات ينشدون قصص البطولة والفروسية فيقابلون بالترحيب والاكرام . وكانت تلك القصص تصور المثل الاعلى لمطامع هؤلاء الاشراف في الحرب والحب والشجاعة وما شابه ذلك من فضائل العصر فاتت صورة حية تنم عن نفسيتهم وصفاتهم الاجتماعية . أما العامة المستعبدون فكانوا لا يهتمون كثيرا بهذه الاغاني القصصية لانها لم تمثل مجتمعهم ولم تعبأ بنفسيتهم . بل كانوا يرغبون في شيء يعبر عما يختلج في صدورهم من عوامل المقت والكره لهؤلاء السادة المتغطرسين ، وعوامل الاستهزاء والسخرية منهم ومما يحيطهم من ترف وابهة وادعاء . كانوا يرغبون في قصص تصف حياة الفقر والخشونة وحياة اللصوصية وقطاع الطرق . فنشأت بجانب القصائد القصصية الحماسية عن البطولة والفروسية قصص وأقاصيص نظمية ونثرية تعبر عن ميل العامة وتصف مجتمعهم . لذلك رأينا فيما بعد قصة « دون كيخوتي » « لسرفنتي » الاسباني وما شابهها وهي قصة تهكم قاتل على ابطال الفروسية المدعين . ورأينا ايضا اقاصيص « الديكاميرون » او العشرة ايام لبوكاشيو الايطالي (توفي سنة ١٣٧٤ م) وفيها اوصاف انتقادية لمن لهم مكانة رفيعة في البلد من قسس وامراء ، فقد هاجم فيها مؤلفها شيوخ الدين المزيفين الذين كانوا يساوون الامراء رفعة ومقاما . وكشف فيها الستار عن فضائح عصره فأتى في بعضها باوصاف منافية للآداب . « والديكاميرون » هذا مجموعة اقاصيص مسلية درس فيها المؤلف اشخاص عصره واخلاقهم في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي واشتهرت بدقة الاوصاف وسعة الخيال وجمال الاسلوب ، ذلك الاسلوب الذي لم يتفوق عليه اسلوب كاتب آخر من كتاب

ذلك القرن . واشتهر امر هذا الكتاب شهرة كبيرة حتى كان مصدر ألهام لكثير من الشعراء اخذوا منه ونسجوا على منواله ، امثال « شاكسبير » في بعض رواياته التمثيلية « وجوتا » فى (فوست) « وشوسر » الشاعر القصصى الانجليزى القديم فى (اقاصيص كانتربرى) ولسنغ الالماني فى (قصة ناتان الحكيم) .

ورحل ماركو بولو (وفاته سنة ١٣٢٤ ميلادية) الى آسيا ومكث فى بلاط « كوبلاخان » امبراطور المغول عشرين عاما عاد بعدها الى وطنه محملا بكنوز الشرق . وأخذ يروي لاهل وطنه « البندقية » رحلته العجيبة مما شاهده فى تلك البلاد النائية التي لم يكن يعرف عنها الناس شيئا مذكورا . لم تكن تلك الرحلة سوى أقاصيص ، منها ما هو حقيقي ، ومنها ماهو مغالى فى اوصافه وحوادثه ، ومنها ما هو كاذب مختلق . وكان لرواية هذه الرحلة وانتشارها تأثير على أذهان المؤلفين فأخذوا يكتبون قصصا خيالية من ابتكارهم مقلدين فيها حوادث رحلة ماركو بولو .

وكان الشرق والغرب فى هذه الازمنة قليلي الاتصال فاذا جاب الرحالون أقطار الشرق وعادوا الى اوطانهم تهافت عليهم الناس لسماع اخبارهم .

وبدأ العالم يسير في طريق الاكتشافات فظهر « كولمبس » و « فاسكودى غاما » و « ماجلان » وغيرهم من مشاهير المكتشفين الذين جازفوا بارواحهم في سبيل تحقيق فكرتهم . وقامت الدول تتنافس فى البحر باساطيلها وعلى رأسها المكتشفون والمستعمرون فنشأت روح جديدة هي روح المخاطرة أثارتها الرغبة فى الحصول على الثروة من طريق التجارة أولا والاستعمار ثانيا .

ولما كانت البلاغة القصصية مرآة لمجتمع عصرها انتشر في هذا الوقت كثير من القصص الخيالية ، استمدت أصولها من روايات الرحالين وأخبار المكتشفين فكتب « دانيل ديفو » القصصى الانجليزي قصته المشهورة « روبنصون كروسو » على أساس قصة واقعية لبحار يدعى سلكرك أمضى أربع سنوات وحيدا فى جزيرة جوان فرناندز . وكتب كذلك « سويفت » الكاتب الانجليزي المعروف قصته عن رحلات « جالفر » الى بلاد الاقزام وبلاد العماليق . وهذان الكتابان يعبران عن ذهنية المجتمع فى ذلك العصر وما قبله ، وكيف كانت مخاطر البحار تشغل عقول الناس وتؤثر على أمزجتهم .

والذي هيأ الافكار وحرك الاذهان لكتابة هذا النوع من البلاغة اتصال الشرق بالغرب في الحروب الصليبية . فقد بدأت هذه الحروب سنة ١٠٩٩ ميلادية اي قبل ظهور ماركو بولو في عالم الدنيا . بدأ هذا الاتصال فكانت له نتائج كبيرة منها ما هو اقتصادي واجتماعي واستعماري ومنها ما هو ادبي اثر تأثيرا عظيما في عقول المؤلفين وانتج نوعا جديدا في الادب العالمي .

القصص في الآداب العربية

القصص في الآداب العربية قليلة وغير هامة وهذا يرجع الى أسباب سنذكرها في غير هذا المكان . وقلة هذا النوع من البلاغة أوجد في أدبنا ثغرة لا يستهان بها . لان « القصص » قسم قائم بذاته في عالم الأدب له شأن كبير ، وربما كان أول الاقسام وأهمها . لذلك عاب علينا كثير من الافرنج خلو هذا النوع من بلاغتنا وعدوه نقصا في أدبياتنا . فاذا كان السلف قد نهج نهجا أبعده عن العناية بتأليف القصص فيجدر بنا وقد تحققنا من علو كعب هذا الفن أن نتدارك ما أهمله السلف ونجد في اقامة دعائمه ، قوية متينة ليؤسس عليها كتاب المستقبل بلاغتنا الجديدة .

وأهمية القصص والاقاصيص الراقية في عالم الادب انها تصور الحياة الاجتماعية في مختلف الازمنة صورة صادقة ، حية بأشخاصها وبيئتها . وفوق ذلك فهي تكشف لك عن خبايا النفوس فتراها بحقيقتها . وقد يتفنن الكاتب البليغ فينشر على الناس نظرية جديدة هي خلاصة تفكيره طالبا منهم أن يأخذوا بها ويطبقوها على أنفسهم في حياتهم لصلاحيتها وفائدتها . والكاتب القصصي صاحب النظريات الجديدة والاوصاف الصادقة من يرجى عليه صلاح المجتمع . فالمجتمع دائم التطور ككل كائن حي والكاتب انما يسير بهذا المجتمع في تطوره يمهد له السبل ويكشف له عن الحقائق ويهيء له جواً صالحا من الافكار والعوائد والاخلاق يطابق التطور الدائم في الحياة . فمن تمرد على أمثال هؤلاء الكتاب فقد تمرد على اصلاح مجتمعه ولم ينله من الحياة الا الاقصاء والالقاء في زواية الاهمال والنسيان .

أنواع القصص العربية

القصص فى الآداب العربية وفى كل الآداب قسمان : قسم موضوع وقسم منقول . فالقصص الموضوع هو الذى انتجته عقولهم . أما الآخر فهو الذى نقلوه بالترجمة الى لغتهم . والقصص الموضوعة هي مثل قصص عنترة وحرب البسوس ومجنون ليلي وسيرة بنى هلال وسيرة ابن ذي يزن وغيرها . والمترجمة ككتاب كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وأدب الهند وغيرها . ومعظم القصص الموضوعة لها أصل تاريخي فاشخاصها أبطال حرب أو حب حقيقيون . وحوادثها الرئيسية التى بنيت عليها القصة حوادث وقعت في التاريخ ولكنها تغيرت عندما تناقلتها الالسنة بالرواية . فكان الراوي يبالغ فى سرد الحوادث ووصف الاشخاص ، يحذف ويضيف على حسب ما يقتضيه ذوق الجمهور وما يتطلبه من الامور التي لها وقع فى قلبه وتأثير على نفسيته . ويكاد هذا التغيير يخفي الاصل فى بعضها فتنشأ على انقاضه قصص جديدة من روايات الراوين . ويجيء شخص في النهاية فيجمع هذه القصص على علاتها ويأخذ في حبكها وتهذيبها ثم ينسبها لاحد الرواة المشهورين كالاصمعي وخلافه ليقبل على قراءتها الناس ويقدروها في شخص مؤلفها الشهير .

وكانت الحالة السياسية فى كثير من الاحيان خصوصاً فى الازمنة الاخيرة داعية لان يفكر الامير أو السلطان فى شيء يلهى به شعبه ويحوله عن عمل يريد القيام به ، أو أمر يريد اخفاءه ويخشى انتقاد الشعب له وقيامهم في وجهه . فيكلف أحد الكتاب بتأليف قصة آخاذة الحوادث تسرق من الناس أوقاتهم وتحول أذهانهم عن انتقاده . فيؤلف الكاتب قصة على الطريقة المذكورة آنفا ، جامعا متفرقات روايات الرواة فى قصة واحدة بعد أن يهذبها ويجعلها صالحة لان يسيغها عقل الجمهور .

أما القصص المنقولة فمنها ما نقل عن الاصل بامانة فى الترجمة ككتاب كليلة ودمنة : ومنها ما غير اما بالاضافة والحذف أو التصليح والتهذيب حتى صار غريبا عن أصله في كثير من نواحيه ككتاب الف ليلة وليلة . لذلك نقول ان الكتاب الاخير وانكان قد ترجم في الاصل عن كتاب (هزار أفسانه) الفارسي

الا أنه يمكننا عده من كتب القصص الموضوعة لاشتماله على كثير من القصص المؤلفة . وفوق ذلك فقصصه المترجمة كاد يضيع أصلها بالتغير والتبدل اللذين طرءا عليها

لماذا لم يهتم العرب بتأليف القصص ؟

مما تقدم نرى أن الفن القصصي في الآداب العربية ضئيل للغاية يكاد لا يذكر اذا قارناه بفن القصص في الآداب الغربية . فلماذا لم يهتم العرب بهذا النوع من البلاغة ؟

ذكر الباحثون عدة أسباب رأينا أن نأتي على اهمها لمطابقتها للعقل .

ذكرنا في أول هذه المقدمة كيف كانت الاساطير المصدر الاول للاقاصيص والقصص . فاذا طبقنا هذه النظرية على العرب وجدنا أن أساطيرهم قليلة لذلك جاءت أقاصيصهم قليلة . فاذا اردنا ان نعرف سبب قلة القصص وجب ان نحول وجهتنا نحو الاساطير .

ان للاقاليم بمناظره ومناخه تاثيرا عظيما للغاية في نفسية افراد الامة وذهنيتهم . فالذي يعيش في بلاد جبلية ذات مناظر رهيبة - غاباتها واحراشها مخيفة ، وأشجارها ضخمة تكتنفها الاسرار ، وكهوفها مظلمة يسكنها مختلف الحيوان ، وأنهارها عظيمة تفيض بالتماسيح ، ووحوشها وجوارحها رهيبة تلقي الرعب في القلوب — تختلف نفسيته ومزاجه عن ساكن السهول المنبسطة حيث المعيشة هادئة والنفس مستريحة لا تجد مما حولها مؤثراً يسبب لها انفعالا . والمرء الذي ينشأ في ذلك الجو القاسي بزمهريره وثلوجه ورياحه وامطاره ورعده وصواعقه لابد أن يختلف في ذهنيته عن ذلك الذي يعيش في جو سماؤه صافية وشمسه نارية لافحة . وبما أن الانسان ابن وراثته وبيئته ، يرث عن آبائه وأجداده الغرائز والكفاءات والميول فينشأ في بيئة تدعم تلك الغرائز وتظهر تلك الكفاءات وتثبت تلك الميول فلا غرابة اذا وجدنا العربي غير عميق في تخيله ، وهو الذي استوطن الصحراء المجدبة وعاش الازمنة الطويلة في بيوت الشعر ، ثروته بعيره وناقته فأينما ارتحل فهما معه يحملان زاده ومسكنه وعدانه بقوته وكسوته ، يعيش عيشة التقشف

والقناعة منذ القدم ، لا تكتنفه الا الرمال الشاسعة الاطراف ولا يهز مخيلته غير مؤثرات بسيطة طفيفة فى ذاتها مما أحاطته بها الطبيعة . لذلك نشأ قليل الاساطير ومن ثم قليل الاقاصيص . فأساطيره عن النجوم بسيطة ساذجة نشأت عن سمائه الصافية وكثرة تحديقه فيها ثم اضطراره الى الاسترشاد بنجومها في السير ليلا . أما عبادته الاولى ـ التي هي نوع من أنواع الاساطير ، بأصنامها وطقوسها ـ فكانت سهلة خالية من الرهبة والعظمة . فالاله الجاهلي كان الها غير مخيف ، والاشخاص الخياليون من جن ومردة وشياطين كانوا غير مرهوبين . وكثيراً ما وجدناهم مسالمين على جانب من الظرف والمجون . ومن اغرب ما يروونه عن آلهته ان العربي الجاهلي كان يصنع آلهة من « العجوة » ويستمر في عبادته حتى اذا جاع أكله . فهل سمعنا باله يمتهن هذه المهانة لولا انه قليل المهابة فى قلوب عباده .

وبالعكس من ذلك نجد التخيل عند الهندى قوياً وعميقاً وهو الذي احاطته الطبيعة بمناظر رهيبة اثرت في مخيلته تأثيراً عميقا فكانت من أهم العوامل التي انتجت فى آدابه الاساطير ومن ثم القصص والاقاصيص . والادبيات الهندية فيها كثير من القصائد القصصية عن حوادث البطولة وأهمها قصيدة « المها بها راتا » التي ذكرناها سلفا . والاساطير الهندية مفعمة بالحوادث الرهيبة وبالاشخاص المخيفة وبالمناظر المرعبة . فهي صورة لما كان يتخيله ساكن البلاد عن غاباته وكهوفه وجباله وحيواناته . وقد جاءت الديانة الهندية كثيرة التعقيد فى طقوسها ، آلهتها عظيمة جبارة قاسية لها المعابد الفخمة والآثار الثمينة .

وقد أتى الاستاذ العقاد فى مقالاته الشيقة المعتمة عن الاساطير عند العرب بثلاثة أسباب هامة تفسر لنا قلة الاساطير العربية . وهي أولا : نظرية « الاقاليم » التي شرحناها مفصلا الآن والتي نعتبرها أهم الاسباب كلها . وثانيا : نظرية « التاريخ » وثالثا : نظرية « اللغة » . أما نظرية « التاريخ » فتتلخص فى أن عبادة الموتى وتأليههم مصدر هام من مصادر الاساطير . وكان هذا التأليه والعبادة ينشآن حينما يسحب الزمن رداءه الطويل فينسى الانسان الشخص الميت الذي كان مثله والذي نسب له فيها بعد الخوارق والمعجزات

فأصبح بطلا عظيما ثم الها مرهوبا . فتقدم الزمن هو الذي رفع هؤلاء الأموات الى صفوف الآلهة. وبما أن آلهة العرب لم تكن قديمة واشخاصها كانوا معروفين عندهم ــ وهم أشخاص من الصالحين ذوي الأخلاق الطيبة والصفات المحمودة ، حفظ الرواة أخبارهم وتناقلوها بأمانة لقوة ذاكرتهم وشهرتهم في حفظ الاخبار ــ فلم يؤلهوها كآلهة بل كأشخاص اتقياء من الصالحين فحسب . لذلك لم يخف العربي آلهته ولم يرهبها خوف الهندي من آلهته الجبارة . أما نظرية « اللغة » فتنحصر في أن الانسان القديم كان يسمى الجوامد بأسماء هي في الاصل صفات واستعارات كان يستعملها للحي . فلما قدمت هذه الصفات والاستعارات صار للجماد صفة الحي وأصبحت له شخصية تماثل شخصية الاحياء (وهذا منشأ الاساطير)٠ وانفصلت على ممر الدهور هذه الصفة وتلك الاستعارة فصارت كل منهما مخالفة لمعناها الاصلي . أما عند العرب فان الكلمات من صفات واستعارات ما برح معناها الاصلي أي الاول يمتزج بحسها فلم تتغير ولم تتخذ لها معنى آخر يخالف ما وضعت له وذلك لعدم تشعب اللغة عندهم وبساطة ألفاظها التي تعبر كل منها على معنى محدود . لذلك لم تأخذ الجمادات عند العرب شخصية الآدميين .

وهناك سببان آخران معقولان يفسران قلة القصص عند العرب .

أولهما : أن العرب كانوا يعتزون بآدابهم ويفتخرون بها معتقدين أنها فوق الآداب الاخرى بلاغة واحكاما فلم يلتفتوا الى آداب الامم التي ترجموا عنها علومها وفلسفتها لاعتقادهم بأنهم في غنى عنها . والذي ساعد على ذلك « دين الاسلام » الذي أبطل عبادة الاصنام وحطم الآلهة . وكان قادة الامة الاسلامية ومفكروها من حكام وعلماء يخشون عودة الافراد للديانة الوثنية القديمة اذا وجدوا في مؤلفاتهم الجديدة شيئا يحرك فيهم أثر تلك العقيدة . فلما ترجموا عن اليونان أهملوا أدبياتهم من شعر قصصي وروايات تمثيلية وهما من نوع القصص ، لانها كانت مؤسسة على (الميثولوجيا) الاساطير . وأساطيرهم كانت مفعمة بحوادث الآلهة التي لا يقرها الاسلام بل يعتبرها ضد الدين . أما العلوم التي نقلوها فكانت لا تمس الدين في شيء لذلك أقبلوا عليها نقلا ودراسة ونشراً في العصر العباسي ــ عصر النهضة العلمية الحقة ــ لانها كانت لازمة لرقي

الامة المـادي . وقد وقفوا متحيرين أمام الفلسفة وهل يصح نقلها ام اهمالها ولكن لم يطل تحيرهم طويلا اذ أقدموا على نقل ما وجدوه منها غير مناف لاحكام الدين العامة . وقد استعانوا بنظرياتها ومباحثها العقلية الصرفة على تأييد براهين الدين العقلية ودعمها . واثر فلسفة أفلاطون وارسطو في الفلسفة العربية خصوصا الاخيرة منهما عظيم لاينكره أحد . وقد سمى العرب ارسطو بالمعلم الأول وشرحوا فلسفته وعلقوا عليها كثيرا . لذلك وجدناهم لم يتعرضوا للالياذة وهي أكبر ارث أدبي ورثه العـالم من اليونان بل اكتفوا بنقل بعض الحـكايات عن الفرس والهند لانهم وجدوها بريئة من أساطير الآلهة . وليس في هذه الحـكايات ما يشعر الأنسان بالاساطير غير شخص « الجان » والجان أقرته الديانة الاسلامية .

ثانيهما : وهو مرتبط بالاول أن الفنون الجميلة من حفر وتصوير وتمثيل وموسيقى وشعر تعتبر أساس الفن القصصي . وجلها ان لم يكن كلها مرتبط بالاساطير أيضا . فالمثال أي (الحفار) كان يصنع تماثيل الآلهة ، والمصور كان يصـور حوادث البطولة والجمال ، والممثل كان يمثل أقاصيص الاساطير وهلم جرا . والفنون الجميلة لاتزهو ولا تنتشر الا اذا زهت المدنية وارتقت لأن الفنون كمالية تأتي بعد اكتمال الضروريات وتنتشر كلما اقترب الناس من هذه الـكماليات . ونحن اذا نظرنا الى الأمة العربية في الزمن الجاهلي وجدناها قليلة الفنون فالتماثيل لم تكن الا تماثيل ضرورة أوجدتها ضرورة التدين فلم يكن عليها أي أثر من آثار الجمال الفني التي امتازت به تماثيل اليونان . والتصوير كان معدوما تقريبا وكذلك التمثيل . أما الموسيقي والشعر : فاولهما موسيقي فطرية ساذجة ليس فيها شيء من الروعة وثانيهما كان شعراً وجدانيا صرفا معبراً عن نفس صاحبه . والشعر الوجداني قسم من أقسام الشعر لا الشعر كله . وسذاجة الفنون الجميلة عند عرب الجاهلية راجعة الى بداوة حياة العربي وبساطتها وتاثير طبيعة أرضه ومناخها على نفسه وذهنيته . وعند ماتم الفتح الاسلامي وبدأت المدنية الاسلامية تتمثل مدنية الفرس واليونان لتؤسس عليهما مدنيتها راينا انتعاش الفنون الجميلة بعض الانتعاش ولـكن وقف الدين حائلا دون أن

تتخطى هذه الفنون الدرجة الأولى منها فلم نر للتصوير الفني الراقي أي اثر في الاسلام ولم نجد بطبيعة الحال تماثيل تعبر عن الجمال . كذلك خلت البلاغة العربية من التمثيل والشعر القصصي . أما الموسيقى العربية فقد استعانوا بالموسيقى الفارسية في ادخال ضروب جديدة فيها لتوافق المزاج الشرقي وذوقه . وبخلو المدنية الاسلامية من الفنون خلت أيضا من القصص لارتباط الأخيرة بالاولى .

الاسباب التي دعت لتأليف القصة العربية

أول الاسباب : أن الانسان بفطرته يحب لحوادث الحرب فخور باعمال الابطال فهو دائما يرويها ممجدا أشخاصها مهتما بحوادثها . ولكل أمة حتى ولكل قبيلة أبطال يفتخر بهم وباعمالهم . والامة العربية ككل الامم وقعت فيها حروب وظهر من بين أفرادها أبطال فجاء الرواة والمحدثون يروون أخبار هذه الحروب ويتحدثون عن هؤلاء الابطال .

وليست شجاعة الابطال في الحرب وذكر الوقائع هي كل ما كان يروى عن تاريخ الامة بل كان للصفات الاخرى التي كانت تعبر عن المثل الاعلى لنفسية الامة وأخلاقها اهتمام كبير عند الرواة . فهناك حوادث كثيرة عن الكرم والوفاء والجود والعفة والاباء والتضحية في سبيل الشرف وغير ذلك مما امتاز به العربي من الصفات الجليلة . فنشأ من هذه الروايات والحوادث الواقعية أول أساس للقصص العربية .

ثاني الاسباب : انتشار حياة الترف والخلاعة والمجون في الوقت الذي أخذت فيه مفاسد المدنية تتغلغل في حياة الشعب الاسلامي في العصر العباسي حيث كثرت مجالس المنادمة والغناء والرقص والسكر والعربدة في بيوت الموسرين والاغنياء وبالاخص في قصور الامراء والخلفاء التي كانت مكتظة بالجواري الحسان مما أدى الى ظهور أقاصيص بعضها واقعي وبعضها مختلق عما كان يجري من حوادث الخلاعة تحت طي الخفاء . وكان لفن الغناء وظهور الشعر الغزلي الذي احتاج اليه المغنون في غنائهم تاثير كبير في تطور هذه الاقاصيص . فالعامة والفقراء الذين كانوا محرومين من وسائل الترف وأسباب الخلاعة والمجون كانوا يرغبون

بطبيعتهم لسماع أمثال هذه الاقاصيص الغرامية بما فيها من أوصاف لحياة الفن والخلاعة ورواية الشعر الغناء الملحن على ضروب الرقص ليتمتعوا بالسماع دون الرؤيا . فانتشرت على اساس هذه الرغبة تلك الاقاصيص الغرامية عن الخلفاء والامراء والقضاة والشعراء والندماء ، اختلط صدقها بكذبها .

ثالث الاسباب : بحث الاستاذ الفاضل الدكتور طه حسين في « حديث الاربعاء » بحثا وافيا عن الشعر الغزلي في عصر بني امية وظهور القصص الغرامية . وسيكون كلامنا في هذا الباب على اساس هذا البحث .

حينما انتقلت الخلافة الى دولة بني امية في الشام وصارت ملكا يتوارثونه عملوا على اقصاء الطامعين في الحكم من بيت النبي صلى الله عليه وسلم اما بالحرب واما بالاغراء أو بالتهديد حتى تم لهم الامر وانفردوا هم والمنتسبون لهم من أقارب وأنصار بادارة زمام الدولة . وكانت جزيرة العرب مسرح تلك الحروب . وكان أهلها من سكان البوادي والحواضر مثيريها فلما انتهى القتال وانهزمت شيعة بني هاشم واستتب لبني أمية الحكم رجع كل انسان الى مكانه الاول يعيش فيه . فاهل المدن الى مدنها واهل البادية الى باديتها . وكان اليأس يخيم على قلوبهم جميعا واضطروا بامر الحكام أن يعتزلوا السياسة ولا يشتغلوا بامور الدولة فرضخوا مرغمين . وكانت السياسة والقتال شغلهم الشاغل فلما حرموا منها ضجروا وجاش صدرهم برغباتهم المكتومة فبحثوا عن منفذ أو محول لها فتم لهم ذلك ، كل على حسب بيئته وحاله الاجتماعي . فاهل المدن (كسكان مكة والمدينة) اجتمع فيهم اليأس والثراء ـ يأس في السياسة وثراء من الآباء أو من الحكام الذين أغدقوا عليهم المال اسكاتا لالسنتهم . فنتج من ذلك اللهو والخلاعة . ومن منا اذا كان غنيا ويائسا من الحياة ليس له مطمع ولا عمل فيها لايولي وجهه شطر اللهو . ومن هذه الجماعة قامت فئة الشعراء الغزليين الذين كانوا يصفون مايشاهدونه وما يشعرون به . فجاء الشعر الغزلي الحقيقي (وهو غير الخيالي) . وامام هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة . أما أهل البادية فقد اجتمع فيهم اليأس والفقر . وفوق ذلك فكانوا يعيشون عيشة سذاجة وتقشف خالية من وسائل الراحة . ولكن الايمان كان يعمر قلوبهم ، وهو الملجأ الأمين الذي يلتجيء اليه الفقير البائس ، المتقشف بالرغم منه ،

ليذهم بما فيه من سلوى واطمئنان . نتج من هذه العوامل زهد وتصوف . ووجد بين هؤلاء الزهاد والمتصوفين شعراء خياليون وصفوا الحب العذرى الطاهر وتغزلوا في أشخاص وهميين . وامام هؤلاء قيس بن الملوح (مجنون ليلى) . هذان القسمان ــ الشعر الغزلى الحقيقى ، والشعر الغزلى الخيالى ــ كانا مصدر الغناء . فلما كثرت مجالس الغناء والمنادمة احتاج الناس الى هذا النوع من الشعر ، الذى كان شعراء البوادى والحواضر يؤلفونه لانفسهم واصفين فيه محاسن عشيقاتهم وراوين فيه حوادث حبهم وغرامهم ، حقيقة وخيالا . ولما لم يكن هذا كافيا لحاجة الناس اضطر صناع الشعر ان يصطنعوا مقطوعات نظمية ظاهراً عليها الصنعة على نمط الاخرى ليسدوا بها ذلك العجز . واحتاج الناس أيضا بحب الاستطلاع الغريزى الى تفسير هذه الاشعار ليعرفوا عم وضعت ولم نظمت . وطلبوا وصل الحوادث التى من شعر واحد ببعضها ، فارضاء لهذه الحاجة الطبيعية نشأت الاقاصيص على ألسنة الرواة والمحدثين . فنشوء هذه القصص ظاهرة طبيعية انتجتها العوامل السالفة الذكر . وأهم هذه القصص ثلاثة : قصة مجنون ليلى (قيس بن الملوح) ، وجميل بثينه (جميل ابن المعمر) وقيس لبنى (قيس بن ذريح) . ومن هذه القصص ماهو مختلق لاوجود لاشخاصه كقصه المجنون ومنها ماله أصل حقيقي ولكنه تبدل وتغير على ألسنة الرواة وجامعي الاخبار كقصة عمر بن أبي ربيعة . والقارىء لهذه القصص يتضح له لاول وهلة عدم انطباق حوادثها على الواقع ففيها الشىء الكثير من خوارق الحياة وعجائبها الغير المعقولة . ومجموعة اشعارها تضم الطيب والرديء فبينما تقرأ قصيده تشعرك بروح قائلها وتصلك بقلبه وفكره تمر على اخرى فلا تجد فيها الا كلمات مرصوصة عليها مسحة الصنعة والتكلف .

رابع الاسباب : ذكرنا قبلا أن القصص تنقسم الى قسمين . قسم موضوع وقسم منقول . فالقسم المنقول نقل معظمه من الفارسية والهندية واشتمل على مجموعة من القصص والاقاصيص أقبل على قراءتها وسماعها الناس لما وجدوا فيها من حوادث غريبة وأوصاف شيقة لم تكن مما تشاهد عندهم . ولما بدأ الرواة و ناسخو هذه القصص يغيرون ويبدلون فيها وفقاً لذوق الجمهور ليزدادا انتشارها ورواجها بدأت من ذلك الحين فكرة التقليد فاستطاع الراوى

بعد ان غير القصة القديمة بجعل مفاجأة جديدة أن يقلد بنفسه حوادث القصة القديمة فيخرج للناس اخرى من تأليفه . ولم يقتصر الحال على الرواة في تصنيف هذه القصص بل تعداهم الى غيرهم من القراء والسماع . والذي ساعد على ذلك انتشار الفتح الاسلامي وانضمام عناصر غريبة عن العنصر العربي الى الامبراطورية الاسلامية فكان هناك الرومي والفارسي والهندي والصيني وسكان شمال افريقية وأعاجم الاندلس . ولاتساع المملكة في ذلك الوقت كثر الانتقال والهجرة لضرورة الاستعمار والتجارة وقطعت المسافات الشاسعة ارضا وبحراً . فبهذا الاحتكاك الذي تم بين العربي وبين الامم الاخرى ، وما استفاده من تجارب الرحلة وتبادل الآراء ، وما تحمله من مشقات ، وما شاهده من مناظر لم يكن قد رآها من قبل وعادات لم يكن يعرف عنها شيئا ، كل هذا أعانه على التأليف القصصي ولو من قبيل المحاكاة والتقليد .

أشهر الأقاصيص والقصص في اللغة العربية

سنقتصر في هذا الباب على ذكر أشهر التآليف القصصية المعروفة مع ذكر شيء عنها حسب أهميتها .

كتاب كليلة ودمنة

ترجم هذا الكتاب عن الفارسية الكاتب البليغ ابن المقفع . وكان قد نقل من الهندية الى الفارسية من قبل فهو هندي الاصل وضعه فيلسوف هندي يدعى « بيدبا » رغبة منه في اصلاح الملك « دبشليم » الجاهل المستبد . ألفه وجعل أقاصيصه على ألسنة الطيور والحيوان لاعتقاد البراهمة من قديم بتناسخ الارواح . كانا نعلم عن هذا الكتاب شيئاً قل أو كثر ولكننا لا نجهله مطلقا لانه ما زال حتى الساعة من مقررات كتب المطالعة في المدارس الثانوية المصرية . هو قصة تحوي عدة أقاصيص ضمنها المؤلف كثيرا من الحكم . لغته العربية جيدة للغاية وهي من النوع الذي يقال عنه « السهل الممتنع » لسهولته ومتانته في آن واحد .

لم يكن الغرض من هذا الكتاب سوى بث المواعظ والحكم وشرح الفضائل ونتائجها الطيبة والرذائل ونتائجها المذمومة ترغيبا في الاولى وزهدا في الاخرى . وفيه كثير من طرق الحيل والمكر في الحياة اجتنابا لعواقبها الوخيمة .

الصادح والباغم

قال صاحب كشف الظنون عنه انه : « منظومة على اسلوب كليلة ودمنة في ألفي بيت لابن الهبارية المتوفي سنة ٥٠٤ هجرية . فيه قصائد وأراجيز ... » ألف هذا الكتاب في أواسط العصر العباسي بعد ظهور كتاب كليله ودمنه بمدة كبيرة . فان وفاة ابن المقفع كانت سنة ١٤٣ هجرية ووفاة ابن الهبارية سنة ٥٠٤ هجرية . والظاهر ان كتاب كليلة ودمنة كان له تأثير كبير على أذهان الناس خصوصا المؤلفين . فقد نقله كتاب كثيرون غير ابن المقفع ونظمه عدة شعراء من بينهم صاحب (الصادح والباغم) في كتاب سماه « نتائج الفطنة في كتاب كليلة ودمنة » . لذلك لا نعجب اذا رأينا ابن الهبارية بعد مضى أكثر من ثلاثمائة عام يفكر على طريقة بيدبا ويقلده في وضع اقاصيصه . وهذا التأثير الذي نشاهده قد عم كثيراً من المؤلفين أمثال « اخوان الصفا » فوضعوا كتاب « الانسان والحيوان » وكذلك ابن عربشاه واضع كتاب « فاكهة الخلفاء » وهما كتابان على نمط كليلة ودمنة . وقد تهافت غير هؤلاء اما على ترجمة كليلة ودمنة واما على تقليده . وهذا يفسر لنا كيف كان هذا النوع جديداً عند الامة العربية وكيف كان مجال التأليف فيه ضيقاً . فكتاب كليلة ودمنة وان كان جديراً بالقراءة الا أنه ليس من الكتب الخالدة التي تهز المشاعر وتنزل الوحي في عقول الكتاب مثل الالياذة .

الانسان والحيوان

الانسان والحيوان قصة خرافية ألفها « اخوان الصفا » في القرن الرابع عشر الهجري . هي ذيل لرسائلهم الشهيرة . تحوى مناظرات بين الوحوش وأنواع الحيوان مع الانسان . وهي وان كانت على نمط كليلة ودمنة في وضع

الحكمة والفائدة على ألسنة الحيوان فيمكننا اعتبارها قطعة من الفلسفة الطبيعية تميز عن آراء هؤلاء « الاخوان » وتقرب لنا من نظرياتهم في الظواهر الطبيعية للانسان والحيوان ومميزات كل نوع من الآخر . وجمعية « اخوان الصفا » جمعية اسلامية فلسفية اتهمت بالالحاد لجرأتها على تفسير غوامض الطبيعة بآرآء يعتبرونهم مخالفاً للدين الاسلامي . واذا عرفنا ان واضعي رسائل اخوان الصفا قد خاضوا مباحث عظيمة مثل النظر في مبادىء الموجودات واصول الكائنات وماهية الطبيعة والارض والسماء وعلم النجوم وتكوين المعادن والصنائع وعلم النبات والحيوان والمنطق وتركيب الجسد الى غير ذلك من المباحث العلمية العملية الجليلة استطعنا أن نقدر هذا الكتاب القصصي قدره لا لكونه قصصياً بالمعنى الصحيح الذي نريده نحن ولكن لاشتماله على نظريات هؤلاء الفلاسفة من الانسان والحيوان وما اتجه بحثهم المتواصل في الكون وذلك بأسلوب قصصي لا يمله القارىء .

فاكهة الخلفاء

مجموعة حكايات من تأليف « ابن عرب شاه » المتوفي سنة ٩٠١ هجرية . نحا فيها نحو كليلة ودمنة فجعل بعض اقاصيصها على السنة الحيوان والبعض الآخر اقاصيص عن الملوك والامراء وما شابه ذلك . وكلها ذات مواعظ وحكم تبعث في النفس الفضائل .

القصص الغرامية في عصر بني امية

(اعتمدنا في كتابة هذا الفصل على مقالات الغزليين « في حديث الاربعاء » للاستاذ الدكتور طه حسين)

أشهر هذه القصص ثلاث : « قصة مجنون ليلى » و « جميل بثينه » و « قيس لبنى » . ونستطيع أن نضمها في صف القصص والاقاصيص لاحتوائها على أهم العناصر المتوفرة في بناء القصة عامة . وليس هذا معناه أن شروط الجودة والاتقان قد توفرت فيها فاصبحت تضاهي القصص الغربية . انما أردنا بما

قلناه أنها بالنسبة لغيرها مما قلد فيه المؤلفون كليلة ودمنة وغيره يصح أن نجعلها في الصف الاول القصص العربية بعد الف ليلة وليلة . اما اذا قارناها بالقصص الغربيه بدا لنا نقصها فظهرت قصصا ضعيفة التأليف تكاد تخلو من حادثة معينة تربط القصة ربطا محكما وتجعل لها قالبا واحدا ، قد حشيت بالوقائع الغير المطابقة لحوادث الحياة والتي لايقبلها العقل مطلقا . وهي التي لم يتكلف مؤلفها وضعها الا ليجعل لقصيدته أو مقطوعته الغنائية سبباً وأصلا . أما أشخاصها فليس لهم في القالب شخصية ولا لون فهم أقرب الى الغموض والتلاشي منهم الى الوضوح والبروز . وأهم ما يبدو لنا في نقصها خلوها من التحليل النفسي فقد أتى فيها مؤلفوها على طائفة من المبالغات المضحكة مسخت الاشخاص وشوهت الحوادث .

وأشخاص هذه القصص مذكورون في التاريخ ولكن منهم « كالمجنون » قد اختلفوا فيه اختلافا عظيما يؤدي بطبيعة الحال الى الاعتقاد بأنه شخص خيالى لا حقيقي . أما جميل بن المعمر وقيس بن ذريح فهما وان كنا نعتقد وجودهما ولكننا ننكر شخصيتهما على المثل الذي رسمه لنا المؤلفون . وكذلك الحادثة فهي وان كانت تمت بصلة الى التاريخ فقد نالتها السنة الرواة حتى غدت اكذوبة جديدة قطعت صلتها بالماضي . ولكننا ننصف الحقيقة اذا قلنا بأن هذه القصص مع ما جاء فيها من ضعف ونقص تمثل فناً من فنون البلاغة كان زاهراً في العصر الاموى . وما هؤلاء الرواة والمحدثون ـ الذين كانوا يحملون شعر البادية الى حواضر الشام حيث كانت مجالس الغناء والمنادمة تستلزمه ـ الا فنانون (على قدر حالهم) استعملوا خيالهم في صناعة هذه القصص ليسلوا الناس بها ويقدمون لهم ما كانوا فيه راغبين .

وقد اشتركت هذه القصص السالفة في أمور دلت على أن ينبوعا واحداً كان يستقى منه مؤلفوها حوادثها هو ينبوع البادية . فقد كان بطل القصة بدويا يعيش معيشة السذاجة والقناعة يحب حباً عفيفاً طاهراً ملك حياته وعقله ولقى فيه مصاعب ومشقات جمة . يقول الشعر معبراً به عن خواطر نفسه وروحه

قصة مجنون ليلى

لا نريد أن نكتب فيها نكتبه عن هذه القصص مواضيعها بالتفصيل لأن غرضنا عرض جوهر القصة وتحليلها . وموضوع قصة مجنون ليلى يتضمن ست حوادث لا تخلو منها أو من معظمها قصص هذا العهد الغرامي، وهي تتلخص فيما يلي : اعجاب قيس بن الملوح ليلى ، أراد أن يتزوجها ، أبى عليه أهله هذا الزواج ، زواجها بغيره ، جنونه ، موته . وحوادث القصة كما ذكرنا سابقاً مشوشة ليست لها رابطة وشخصياتها واهية ضعيفة خصوصاً شخصية البطل الذي خلط المؤلف في وصفه خلطاً مضحكا فلم يفرق بين الشخص المجنون والشخص الفيلسوف ، والخيال في القصة سخيف للغاية لأن « قيس » الذي أراد المؤلف أن يجعله مجنوناً كان على تمام العقل يروى شعراً غاية في الجودة . ولكنه كان كثير الغشيان والاغماء فاذا سمع لفظة ليلى أو شيئا عنها خر مغشياً عليه . وقد زهد الناس والمجتمع فهرب الى حيث عاشر الوحوش مؤتنسا بهم مؤتنسة به . فاذا كان قيس بن الملوح مجنوناً حقاً لرأيناه غير قادر أن يعبر عن شعوره بشعر منسجم رقيق كالذي قاله . اما اذا كان فيلسوفاً عاقلا لما رأيناه كالطفل يبكي وينوح أو يغمى عليه بعشرات المرات في اليوم وحده ، أو تحترق يده فلا يشعر بلهيب النار حينما كان يسمع شيئاً عن محبوبته . على هذا المثال اخرج لنا مؤلف قصة مجنون ليلى شخصيات قصته وعلى هذا النحو من الخلط ذكر لنا حوادثها .

قصة جميل بثينة

هذه القصة وان كانت اقل سخفاً وضعفاً من سابقتها نسبياً فهي لا تخلو في كثير من نواحيها من هذا السخف والضعف . كان جميل بن المعمر شخصا تاريخيا أجمع على وجوده الرواة والمؤرخون . ولكن المؤلف مسخه مسخا مؤلما فلم يحافظ على شخصيته التاريخية ولم ينجح في خلق شخصية أخرى له توافق ما أراده لبطل قصته . رغب المؤلف في ان يكون حب جميل حبا عذريا طاهراً ففشل في ذلك وجاء حب جميل خليطاً من الطهر والفساد . ويظهر ان هذا

المؤلف قد تأثر بشخصيتي امرىءالقيس وعمر بن أبي ربيعة في بعض الاحيان فألبس بطله شخصيتي هذين الشاعرين وجعله يقلدهما في الأعمال والاقوال ولكن تقليدا مزيفا مضحكا . والقصة تتلخص في خمس حوادث مهمة : أحب جميل بثينة ، رفضت عائلته ان تزوجه منها ، زواجها بغيره ، لوعته وهيامه ، موته .

قصة قيس لبنى

هذه القصة تفضل قصتي المجنون وجميل فقد امتازت بميزات كثيرة تؤهلها لان تكون قصة جيدة بالنسبة لمثيلاتها . وسنذكر هذه الميزات بعد سرد حوادث القصة ليظهر للقارىء حقيقة هذا القول . والقصة تتلخص فيما يلي : أحب قيس بن ذريح لبنى حبا عظيما وطلب أن يتزوجها فرفض أبوه ذلك الزواج لانه أراد أن يزوجه من عائلته خوفا من انتقال الثروة للغرباء ، ولكنه رضخ أخيرا حينما توسط الحسين بن علي في أمر هذا الزواج ، فتم بفضل وساطته . تزوج قيس وعاش سعيدا مغمورا بذلك الحب . ورأت أمه ان الزوجة قد سلبت ابنها من أحضانها وانتزعت حبه لها من قلبه فلم يعد ذلك القلب يخفق الا بحب واحد ، حب الزوج لزوجته . فاستاءت وبدأت تحوله عن زوجته ليعود اليها ففشلت . فوجهت شطرها ناحية الاب وجعلت توغر صدره على زوجة ابنه غيرة منها وكرها لها . وأخبرته بأنها عاقر لن تلد لابنه نسلا يحيي اسمه ويخلد بيته فغضب الرجل . وقد استطاعت المرأة أن تصدمه في الناحية الضعيفة منه فطلب من ابنه أن يطلق زوجته أو يتزوج عليها أخرى تلد له نسلا يحمل اسم العائلة ويحافظ عليها فرفض الابن رفضاً باتا . ولكن بالرغم من ذلك الرفض أصر الاب على طلبه وألح على ابنه الحاحا متواصلا تارة باللين وتارة بالغضب والوعيد . فاتقدت في قلب الشاب ثورة هائلة وتنازعته عاطفتان قويتان عاطفة الزوج وعاطفة الابن ، فاذا جارى الاولى فقد أغضب الابوة وازدرى بها ، واذا جارى الثانية فقد طعن قلبه وقلب حبيبته . ودام هذا النزاع مدة طويلة لا نعرف مداها بالتدقيق فقد خلط فيها الرواة ولكنه انتهى الى أمر انتصر فيه واجب الابوة فطلق قيس زوجته بالرغم منه وهو يكاد بفعلته هذه ينتزع

من بين جنبيه قلبه . وجاءت بعد ذلك حياة الشقاء والنكد التي قاسى فيها المحبان وله الحب واصطليا بناره المستعرة . وتزوج قيس في النهاية ولكنه لم يستطع البقاء مع من تزوجها . وتزوجت لبنى أيضاً على كره منها . وتنتهي القصة بموضوعين اختلف فيهما الرواة . الاول بالموت . والثاني بالزواج ، أي زواج قيس من لبنى ثانياً .

هذه القصة تمتاز على مثيلاتها بشيئين بارزين . أولهما ان حوادثها وأشخاصها منتزعة من الحياة في ذلك العصر . فقد افرغ المؤلف حوادثه في قالب من الحقيقة ورسم أشخاصه ممن كان يراهم حوله من الناس فأتى بشيء جديد . وهو وان كان قد بالغ ـ شأن كتاب هذا العهد ـ في الاوصاف لكن مبالغته كانت اقل من غيرها . وثانيهما انها حوت شيئاً من التحليل النفسي الذي فشل مؤلفو القصص الاخرى في عمله . فقد كانت أعمال أبطال القصة من أب يريد احترام كلمته ويرغب في نسل من أهله وعشيرته يخلد اسمه ويحافظ على ثروته ، ومن ابن يتنازعه حب الأب وحب الزوجة ، ومن أم دب في قلبها دبيب الغيرة حينما رأت ابنها الوحيد الذي جعلته مطمح أملها في الحياة وموضوع حبها قد هجرها وسلم زمام عقله وقلبه لزوجته المدله بحبها ، ومن فتاة يائسة رأت نفسها في مركز حرج فبينما هي محبة لزوجها لا تريد منه انفصالا نجدها لا تريد أن تكون عقبة في سبيل سعادة أسرته وهنائها الدائم في المستقبل . رسم المؤلف أشخاصه من الحياة وجعلهم يسيرون في أعمالهم على أصول نفسية صحيحة ورتب حوادثه على هذه الاصول فجاءت معقولة . فالحادثة الهامة في القصة أو ما يسمونها (العقدة) التي يبنى عليها المؤلف قصته هي « العداء بين الام وزوجة ابنها » . وهذا العداء الذي تثيره غيرة الامومة صحيح ومعقول وكثير الوقوع في الحياة .

والقصة وان كانت قد حوت مميزات رفعتها عن غيرها فلم تخل من المبالغات وشيء من السخف في الحوادث . ولكنها جديرة بأن تعد من القصص الجيدة في ذلك العصر .

ألف ليلة وليلة

كتاب ألف ليلة وليلة وكلنا نعرفه حق المعرفة كتاب مشهور في عالم الأدب العربي طبع عدة طبعات عربية ونقل الى معظم اللغات الأجنبية . ويكاد يجمع عامة الادباء والباحثين على اعتباره أنه الكتاب القصصي الوحيد بالمعنى الصحيح في الآداب العربية . وهذا حق اذا قارناه بما كتب من القصص والاقاصيص العربية في مختلف العصور .

مصادر الكتاب

مصادر الكتاب ثلاثة . أولا : كتاب « هزار افسانه » الفارسي أي ألف خرافة وهو مجموعة قصص خرافية فارسية وهندية . ثانيا : قصص كتبت على نمط القصص الاصلية بعد ان تغيرت الاخيرة وتبدلت بأيدي الكتاب وعلى ألسنة الرواة والمؤلفين . وهذه القصص المقلدة تتضمن قصصاً كتبت في بغداد واخرى في مصر ظاهر على كل منها ما يميزها عن الاخرى . وقيل ان كثيرا من اليهود اشتركوا في تأليف هذه القصص . ثالثا : ماجمعه أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشاري صاحب كتاب الوزراء من حكايات ونوادر للعرب والعجم والروم مما كانت تروى في حفلات السمر والمنادمة بواسطة السامرين . ومن هذه القصص حكايات عن الرشيد وأبي نواس وحاتم طي وغيرهم . وهذه القصص اما ان يكون لها أصل واقعي أو أن تكون موضوعة وغيرت بتداولها من لسان الى لسان

ومجموعة قصص ألف ليلة وان اختلفت في مصادرها فقد انتهت الى أن تكون مجموعة جديدة ليس لها صلة بأصلها ، عليها طابع واحد وتكاد تكون لها وحدة مستقلة عن غيرها فقد محى الاصل الفارسي بما لحقه من التبديل الدائم الذى كان يقوم به الكتاب والرواة ارضاء لذوق الجمهور .

تعدد الاساليب والاخيلة في الكتاب

ولكن بالرغم مما تقدم يمكن للباحث المدقق الذى يريد رد القصص الى اصولها ومصادرها ويكشف النقاب عن مؤلفيها أن يفرق بين القصص وبعضها ويلحق كل واحدة بقسمها الخاص بها . ولا ريب في ان هذا العمل دقيق يتطلب معرفة تامة وخبرة كبيرة . فالذى يريد فحص القصص على هذا المنوال وجب عليه أن يستعين بشيئين هامين هما من آلات الفحص والاختبار ، ونعني بهما « الاسلوب والخيال » . فمن القصص ذات الاسلوب العربي الصميم نعرف انها كتبت في العصر الاول حينما كانت اللغة خالية من شوائب العجمة متينة التركيب تحمل آثار البداوة . وقد قيل ان الاصل نقل قبل القرن الرابع الهجرى . ومن القصص التي كتبت باسلوب يكاد يكون عاميا نعرف انها من صنع مؤلفي العصر المتأخر حينما انحطت اللغة وكادت تتغلب عليها لغة الدخلاء والعامة .

اما الخيال فهنالك الخيال الفارسي الأصلي ظاهر في بعضها رغم التغيير الذى لحقها . وهنالك الخيال اليهودى يصور لنا في قصصه خرافات بني اسرائيل ويسمى لنا اشخاصها بأسماء يهودية صرفة . وقلما تخلو قصص هذا القسم من تلك الخرافات القديمة التي حوت الديانة اليهودية كثيرا منها . اما القسم الاسلامى فقلما نجد فيه خرافات كثيرة تستمد اصولها من مصادر تاريخية او دينية غير اسلامية . لذلك اتت القصص الاسلامية في الكتاب قليلة الخرافة تمتاز بوصف الحقيقة والواقع . وهذا شيء طبيعي قد فسرناه فيما سبق وهو ان الامة العربية لم تكن امة اساطير (خرافات).

واذا اردنا التفصيل والتشريح في معرفة اصول القصص ومؤلفيها فيمكننا تقسيم القسم الاسلامى الى قسمين هامين : قسم بغدادى وآخر مصري . فالقصص التي كتبت في بغداد وما جاورها تختلف اختلافا ظاهرا عن تلك التي كتبت في مصر لاختلاف البيئة والاشخاص والعوائد . لذلك جاءت الاوصاف متباينة على كل منها رسم بلدها .

ولا ريب في أن الباحثين المدققين لهم اساليب عديدة يجرون عليها في ابحاثهم ويستدلون بها على معرفة اصول هذا الكتاب المحاط بالأسرار والالغاز .

مما تقدم نعلم ان « الف ليلة وليلة » لا يحمل اسم مؤلف واحد حتى ولا اسماء عدة مؤلفين معروفة لدينا فهو مجموعة قصص واقاصيص نقلها وألفها عدة مؤلفين غير معروفين وبدّلها وغيرها عدّة رواة ونساخين على مر السنين حتى وصل الينا كما هو الآن مجهول المؤلف غير واضح المصادر .

أهمية الكتاب

والكتاب له أهمية كبيرة لم يفطن اليها الا بعض ادبائنا في الوقت الحاضر . وقد سبقنا في ذلك مستشرقو الافرنج من أدباء ومؤرخين في تقدير الكتاب حق قدره . والظاهر أن لغته التي هي في مجموعها أقرب الى العامية منها الى العربية الفصحى القديمة كانت السبب الاول في اغفال الادباء امره . فالناس لم تكن تأبه الا للأساليب الصحيحة الخالية من شوائب الدخيل نافرة من لغة العامة التي كانوا يخافون على الفصيح من غزواتها الدائمة والتي كانوا يعتبرونها خطراً حقيقياً يهدد كيان اللغة ويعمل على فنائها . لذلك احتقروا من كتب بها ووضعوه في صف العامة الذين لم يكتب الا لهم ومن أجلهم . أضف الى ذلك قلة النوع القصصي في البلاغة العربية واعتباره كمية مهملة لا يمكن وضعها في صف الخطابة والرسائل والشعر .

والكتاب يضم في جوفه كثيرا من السخافات وليس في قصصه شيء من مزايا القصص الراقية غير ائتلاف في بعض حوادثها . ولكن بالرغم من ذلك كله فاهميته لا ينكرها أحد من عقلاء الادباء والمفكرين . فهو وان كان قد أسخط فئة المحافظين الذين يخشون على اللغة اضمحلالها وفناءها بتأثير العامية ، ولم يرض فئة القصصيين المصريين الجامحين في أفكارهم ومطالبهم من وجدوا فيه تقصيرا كبيرا في استيفاء جميع العناصر اللازمة لبناء القصة الجديدة ، فقد أرضى كافة الادباء والمفكرين الذين اعتبروه سجلا هاما حوى أخلاق الامة العربية وعوائدها وانظمتها وأفكارها وسبل عيشها في العصور الاسلامية الوسطى : وبالاجمال فالكتاب صورة واضحة « لحياتها الاجتماعية » في تلك العصور . ومن ينكر فضل مؤلف يقدم لنا تلك الصورة الجليلة في وقت قصرت فيه البلاغة العربية في تقديم مثل هذه الصور .

المقامات

حينما اتسعت المملكة الاسلامية على أثر الفتوحات ودخلت في الأمة العربية أجناس مختلفة جعلت تتكلم بلسان أهلها وبدأ الدخيل من الكلمات واللهجات والاصطلاحات ينتشر في ميدان اللغة الصحيحة قامت جماعات اللغويين والنحاة ينبهون الناس الى مواطن الضعف ويحرضونهم على استعمال الاساليب الصحيحة والكلمات الفصيحة . فالمؤلف كان يخشى أن يكتب عن جهل والقاريء كان يزدري ما عليه مسحة العامية من كلمات وأساليب . فنتج عن ذلك ان اخذ المؤلف ينتقي الكلمات انتقاء ويتخير الأساليب تخيرا . وتمادى في ذلك الانتقاء وذلك التخير . وقامت المنافسة بينه وبين زملائه ، كل واحد يريد التفوق على سواه . فاتجهت الأذهان الى المحسنات اللفظية وأهمل جوهر الموضوع فنشأت قواعد جديدة للانشاء امتاز فيها من استطاع أن يجيء بشيء مستملح من الالفاظ والاساليب يؤثر على السمع ويبهر النظر ، ومن ثم كان السجع والاطالة والحشو . وتمشق المؤلفون الألفاظ المهجورة والأساليب الغريبة ليؤثروا بها على القراء ويظهروا لهم مبلغ علمهم بدقائق اللغة وتضلعهم فيها .

في ذلك الجو الذي استمد منه المؤلفون لغة كتاباتهم وطريقة تفكيرهم نشأت المقامات . وهي شبه أقاصيص يتخذ لها المؤلف بطلا وهميا يروى على لسانه ما شاهده من حوادث وما سمعه من أقوال . وليست للمقامات أي قيمة قصصية وان كانت كتاباتها وضعت في القالب القصصي لانها خلت من اهم مميزات القصة وهو (الحادثة) . نشأ هذا النوع من الكتابة من كثرة اختلاط العرب بالفرس وتأثر الاولين بحضارة الآخرين التي شملت فيما شملته الآداب . فأراد مؤلفو العرب مجاراة منهم في تقليد البلاغة القصصية الفارسية أن يبتدعوا شيئا جديدا في الادب العربي يكون له نفس المكانة التي كانت له عند الفرس فأخذوا يؤلفون المقامات . واول من طالجها وبرع فيها بديع الزمان الهمذاني (المتوفي سنة ٣٩٨ هجرية) . ثم اشتهر بعده الحريري (المتوفى سنة ٥١٦ هجرية) ثم الزمخشري (المتوفي سنة ٥٣٨ هجرية) . وانتشر هذا النوع انتشاراً كبيراً حتى كان لكتابنا المصريين أثر كبير فيه .

فقد كتب الشيخ ناصيف اليازجي (المتوفى سنة ١٨٧١ ميلادية) كتابه « مجمع البحرين » وهو مجموعة مقامات على نسق مقامات الحريري والهمداني . وكتب أحمد فارس الشدياق كتابه « الفارياق » وهو يصح أن نضيفه على كتب المقامات وان اختلف عنها اختلافاً صغيراً لاحتوائه على وصف اسفاره وانتقاده لجماعة الاكليروس انتقاما لما فعلوه بأخيه . وفي العصر الحاضر ظهر كتاب عيسى بن هشام ، وليالي سطيح . الاول لمحمد بك المويلحي والثاني لحافظ بك ابراهيم . وهما على نمط المقامات ولكن الاول تفوق على سواه مما كتبه المعاصرون من « الكتب المقامية » لأن مؤلفه لم يقتصر فيه على طريقة المقامات واسلوبها بل تعداها الى وصف البيئة المصرية فعرض أشخاصها بمهارة قصصية يغبط عليها .

والظاهر أن الذي دعا هؤلاء الكتاب المصريين لان ينسجوا على منوال المقامات ويسلكوا سبيلها الذي ابتدعه الهمداني على لسان « عيسى بن هشام » هو أنهم كانوا يريدون التوفيق ما أمكن بين الادب الغربي والادب العربي وكان معظمهم لا يجرأ على ابتداع شيء جديد في الادب . فاذا أراد كاتب منهم بحكم تأثير المدنية الغربية أن يؤلف شيئاً على نمط القصص الغربية حول وجهه أولا نحو دفائن الآداب العربية يفتش فيها عن شيء يستمد منه الاصول لصورة مؤلفه الجديد . كأنه كان يخشى أن يتهم بالمروق والخيانة اذا أتى بشيء لم يضع اساسه العرب . أو كان يخشى أن يقابل عمله بالامتهان من جمهور القراء المتوفرين على قراءة الآداب العربية القديمة ، الذين لا يعتدون بشيء جديد لم يروا له مثالا فيما قرأوه . لذلك وجدناه يلجأ الى طريقة المقامات التي وجد فيها منفذا لكتابته . ولكنه بعمله هذا حصر مجهوده في ابراز شيء قديم بصورة حديثة ، أي أنه لم يفعل شيئاً جديدا مبتكرا . بل وجدناه يرجع الى السجع في الوقت الذي كان عامة الادباء المصريين المتنورين قد استنكروه وعملوا على التخلص منه .

والمقامة وان شابهت القصة بعض المشابهة فهي تختلف عنها في كثير من الامور أهمها خلوها من « الحادثة » . فحوادثها وأوصافها ليست لها أي قيمة روائية . كذلك خلت من اظهار الشخصيات وتحليلها ودرس أخلاقها . وهي

وان كانت قد تضمنت الموعظة أو الحكمة أو النكتة المستملحة في قالب قصصي فكان الغرض من كتابتها أدبيا محضا ليظهر الكاتب براعته في فن الادب بأساليبه المسجعة المكتوبة على قواعد « المحسنات البديعية » ، وتمعته في اللغة بكلماته الغريبة ، وتبحره في النحو بألغازه النحوية وهلم جرا .

رسالة الغفران

لا يبعد أن يكون المعري قد كتب رسالة الغفران متأثرا من حيث لا يشعر بجو « المقامات » الجديد الذي انتشر فيه الاسلوب والتأليف القصصي . فقد توفي المعري سنة ٤٤٩ هجرية أي بعد وفاة الهمذاني باحدى وخمسين عاما . ورسالة الغفران تفضل المقامات بعدة مميزات ولعل ذلك راجع الى ان « المقامة » كانت قد دخلت دماغ المعري واستقرت فيه ولكنه مثلها وأخرجها صورة أخرى حية مبتكرة ناضجة لم يسبقه الى اخراجها أحد من مؤلفي المقامات .

ونحن اذا قارنا المقامات برسالة الغفران وجدناها تتفق معها في عدة نواحي وتفترق عنها في أخرى . ففي الرسالة كثير من السجع والاشعار الصعبة الفهم والالفاظ الغريبة وهذا ما يشبه المقامات منها . أما ما امتازت به الرسالة وبزت به المقامات فهو الفكرة الناضجة التي بنى المعري عليها قصته . فلم تكن رسالة الغفران مجموعة من الالفاظ الغريبة مرصوصة باسلوب خاص وطريقة في الانشاء خاصة بل هي فكرة جليلة أوجدها خيال ذلك الاعمى القوي وبنى عليها نقده للعادات والاخلاق من جهة ، ونقده لشعراء الجاهلية والاسلام وادبائهم بما فيهم الرواة والنحاة من جهة أخرى . فهي سفر جليل للنقد الاخلاقي والادبي في قالب قصصي خيالي مستحب وجميل . ومما امتازت به رسالة الغفران ما فيها من سخرية خافية متغلغلة في أكثر نواحيها . ولعله سلك الطريق الذي سلكه من بعد « أناتول فرانس » القصصي الفرنسي المشهور فكلاهما كان له سخرية انتقادية لاذعة لا يشعر بها الا من قرأ بين السطور واستطلع مرامي المؤلف التي يقصدها بالذات . والرسالة قصة خيالية عن رجل بعث من قبره ورأى الجنة وجهنم فوصف ما فيهما من نعيم دائم وجحيم مقيم ، ومن قابله من الشعراء والادباء وعظماء الناس ، وكيف حاورهم وحاوروه وناقشهم وناقشوه .

ومن قابلهم في دار النعيم أشخاص لم يكن ينتظر وجودهم فيها فسألهم بما غفر الله لهم فأخبره كل منهم بما أتاه من عمل أو قاله من شعر سبب عفو الله عنه . لذلك سميت الرسالة برسالة الغفران . وكأنه قد استشهد بهؤلاء الشعراء الذين دخلوا الجنة وجوازهم اليها بعض أشعار قالوها بأن شعره الصالح كفيل لأن يضمه الى زمرة الطاهرين تكفيرا عما قاله من شعر هده الناس الحادا وكفرا .

والرسالة في مجموعها نقدية أكثر منها قصصية . ولكن هناك شبها قويا بينها وبين « الكوميدية الالهية » لدانتي الطلياني وهي التي سبق ذكرها « والفردوس المفقود » لملتن الانجليزي . وبما أن عهد المعري سابق لعهد هذين الشاعرين فلا يبعد أن يكونا قد تأثرا بفكرته عند ما كتبا مؤلفيهما .

وعلى ذكر التأثير الادبي الذي لحق الغرب من الشرق ما ذكره بعض النقاد من ان بعضا من كتاب الافرنج على اثر اختلاط الغرب بالشرق قد تأثر بالاقاصيص الشرقية على قلتها خصوصا بكتابي الف ليلة وكليلة ودمنة . فذكروا أن اقاصيص « هانس اندرسون » الدانمركي « ورحلات جيلفر » للكاتب الانجليزي سويفت وسياحات « جل بلاس » للكاتب الفرنسي لوساج و « كتاب الغابة » للكاتب الانجليزي كبلنج كلها قد كتبت بتأثير الادب القصصي في الشرق عامة وعند العرب خاصة .

قصص الحرب والبطولة أو قصص العوام

ومن القصص التي يضمها طائفة مؤلفي الافرنج من المستشرقين ـ الذين كتبوا عن آداب اللغة العربية ـ في الصف الاول من مؤلفات العرب القصصية والتي يعتبرونها من وضعهم ووليدة ذهنهم « قصص الحرب والبطولة » التي سماها بعضهم « قصص العوام » لانها اشتهرت بين العامة أكثر من اشتهارها بين الخاصة . يمكننا ان نطلق على هذه القصص لفظة « قصص عربية » بالمعنى الصحيح لان معظمها جمعت ورتبت وألفت ورويت على ان تكون قصصا . واشهرها قصة عنترة ، والبراق (التي منها حرب البسوس) ، وبكر وتغلب ، وشيبان مع كسرى ، والزير سالم ، وبني هلال (ابو زيد الهلالي) ، والبطال (قصة الاميرة ذات الهمة) ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذي يزن ، وفيروزشاه .

كلمة عامة على قصص العوام

امتازت هذه القصص بوجه عام بذكر اخبار الحروب وأعمال البطولة فى العهد الجاهلى وما بعده وحوادث الحب المتصلة بهذه الحروب . فيها ما هو تاريخى وفيها ما هو مشوه ، وفيها أيضاً ما هو مختلق . لغة بعضها سقيمة مبتذلة كقصة ذات الهمة وبعضها أقرب الى العربية منها الى العامية والبعض الآخر له أسلوب ممتاز كقصة عنتر والبراق . ولعلها ان لم يكن كلها لها أصل تاريخى ثم بتداولها على ألسنة الرواة والسامعين تغيرت بالزيادة والابدال والحذف . ثم جمعت كل واحدة في النهاية بواسطة شخص نسبها الى احد الرواة المشهورين ترويجاً لها ، وذلك بقصد سياسي على أغلب الاحوال لالهاء الناس عن حادثة معينة . كما فعل الشيخ يوسف ابن اسماعيل بأمر الخليفة العزيز بالله الفاطمى فجمع أخبار عنترة وأشعاره وصاغها في قالب قصصى ثم نسخها وجعل ينشرها على الناس أجزاء صغيرة لالهاء الشعب عن التحدث بريبة حدثت في بيت الخليفة كان قد لغط الناس بها كثيراً . وقد نسب يوسف بن اسماعيل هذه القصة للاصمعى المعروف ليقدرها الجميع فى شخص المنسوبة اليه . وأغلب هذه القصص قد نشأت فى الأصل نشأة طبيعية ليس فيها أى تعمل أو قصد . فالعربى كثير الاعجاب بفضائله دائم الاشادة والتغني بها يرغب جهده في تعميمها ونشرها بين مواطنيه وزرعها في قلوبهم صغاراً وكباراً . وهذه الفضائل نشأت بحكم الطبيعة متممة له يشعر بها بفطرته . فالحماسة والشجاعة والثأر والوفاء والعصبية هي بلا ريب أثر من آثار البيئة التى نشأ فيها . فاذا ما افتخر بها فكأنما يتحدث عن نفسيته وحياته . وقد تضمنت أخبارهم وأشعارهم ذكر كثير من هذه الفضائل خصوصا فضيلة البطولة في الحرب فقسم الحماسة فى الشعر القديم يعتبر أهم أقسام الشعر العربى . وعلى منواله وطريقته نسج الشعراء المتأخرون قصائدهم الحماسية ولكنهم كانوا في عملهم مقلدين لا معبرين عن حقيقة نفوسهم . وكانت هذه الاخبار وهذا الشعر مما يحتاج اليه الناس في غزواتهم وحروبهم ليثيروا الهمم ويسعروا نار الحمية في القلوب ويجعلوا المحاربين أكثر جلداً وصبراً على تحمل مكاره القتال لذلك رأينا الرواة ينقلون الشعر والاخبار عن أعمال

الابطال في الحرب والسلم فيتلقاها الناس بمزيد الاعجاب والفخر . واتسعت الرواية وكثرت وتناولتها الالسنة بالحذف والاضافة حتى جمعت في النهاية ورتبت وألفت على أن تكون قصة بالمعنى الصحيح .

ولكن مع ما في هذه القصص من التناقض في الاوصاف والضعف في التأليف والتصوير والخلط في الحوادث فهي تمثل شيئين هامين يكونان الركنين الاساسيين للبلاغة القصصية وهما : تصوير المجتمع ، وتصوير الاخلاق والمنازع النفسية في هذا المجتمع . فمن هذه القصص نستطيع ان نعلم حالة المجتمع العربي في عصر الجاهلية أو في العصر الاسلامي المتقدم أو المتأخر . كذلك نستطيع أن نعلم أخلاق الناس في هذه العصور ونفسيتهم ومطامعهم وما هم عليه من فضيلة أو رذيلة . وهذا من الفوائد التي يجتنيها الباحث الاجتماعي من القصص عامة . ولو كان مؤلفو هذه الاقاصيص قد أجادوا تأليفها وصياغتها وعنوا بتهذيبها وتنقيتها من الاغلاط التاريخية والخلط في حوادث العصور ثم جمعت بعد ذلك في سفر واحد لكان هذا السفر بمثابة « الياذة » للآداب العربية تحوي بين دفتيها تاريخهم وعوائدهم وأخلاقهم وتطور نفسيتهم . وكل قصة من هذه القصص تنقسم الى قسمين ، قسم المنثور وقسم المنظوم . والقسمان بطبيعة الحال مخلوطان بعضهما على حسب مقتضيات القصة . وأغلب هذه القصص قد جمعت ووضعت للعامة ومن ثم احتقرها الخاصة ونبذوها فانتشرت عند الفئة الاولى انتشاراً كبيرا وجعلت تتقلب في ميدانهم الفسيح يتلقاها الرواة عن بعضهم ويسمعوها لهم (للعامة) في مجالسهم . لذلك رأيناها تكتسي ذلك اللباس العامي في اللغة والافكار والعادات ارضاء لعشاقها وسامعيها . ولقد ورث العصر الحاضر عن العصر الماضي هذه القصص فنشأت لذلك مجالس القهاوي وقام جماعة الشعراء والقصاصين فحلوا محل الرواة . وما زالت القاهرة تحوي عدة قهاوي لهذا الغرض يؤمها السامعون كل ليلة فينصتوا بشغف وسرور وحماس لقصة « الزير سالم » و « أبي زيد الهلالي » و « عنترة » و « الاميرة ذات الهمة » وغيرها . وهذه القهاوي من الطراز البلدي تمثل العصر القديم وجمهورها من « الطبقة البلدية » يلبسون الجلاليب واللبد والعمائم والطرابيش . أما الراوي فهو اما قصاص يروي القصة بدون غناء اذا كانت القصة من النوع الذي ليس فيه

أناشيد ، أو قصاص وينشد في آن واحد وهو ما يطلقون عليه اسم الشاعر . وهو يروي حوادث القصة النثرية ويغني قصائدها على « الربابة » . وأغلب النثر في هذه القصص مسجع وسخيف أما النظم فسقيم لا يعرف له ضابط ولا وزن . يأتي الشاعر كل ليلة فيعتلي المنبر ويجلس قباله الجمهور يستمع له بانتباه كبير . وكثيرا ما يمسك بيده سيفاً من خشب يمثل به وقائع القتال ليؤثر تأثيره المرغوب على السامعين . وربما استغرقت رواية القصة الواحدة عشرين أو ثلاثين يوماً . ومن القصص ما تنتهي في اسبوع أو أقل . وسنأتي بشرح قليل لأهم هذه القصص اتماما للفائدة .

قصة عنترة

هي أحسن الجميع لغة وشعراً . تضمنت بعض حروب العرب وشيئا من تاريخهم قبل الاسلام . كلها حماس وفخر وحمية وغرام . تمثل حياة العربي في العهد الجاهلي بعوائده واخلاقه وفضائله . فوصفت شجاعته وكرمه وحبه ووفاءه وتضحيته ، وأتت على ذكر كثير من الابطال فعرفتهم بصفاتهم التي امتازوا بها حربا وسلما . اما حوادثها التاريخية فغير موثوق بها وفيها كثير من الخلط والغلط التاريخي والاجتماعي وليس بها رابطة تربط حوادثها المفككة . ولكن كل هذا لا ينقص من قيمتها ففيها مواقف روائية رائعة خصوصا الموقف الاخير الذي مات فيه عنترة حينما أصيب بسهم مسموم . فقد شعر بنهايته ولكنه خشى هزيمة جيشه ان اتضح للمقاتلين موته فاسرع الى جواده فامتطاه وارتكن على رمحه ومات وهو على هذه الحالة بهيئته الطبيعية . فلما رآه العدو من بعيد ظنه حيا يدير رحى القتال فلم يجسر ان يتقدم . ولكن اكتشفت الحيلة في النهاية اذ قفز الجواد قفزة رمت بفارسه على الارض جثة لا حراك فيها . وقد كتب الاستاذ شكري غانم رواية نظمية بالفرنسية سماها « عنتر » واتى بهذا الموقف الاخير ففرضه على المسرح لاهميته الروائية وروعته . وقد مثلت هذه الرواية على المسارح الفرنسية

سيرة بني هلال ، أو ، أبو زيد الهلالي

حدثت وقائع هذه القصة في منتصف القرن الثالث للهجرة ، ودونت بعد هذا الوقت بقليل ، تشتمل على مجموعة من حوادث وتاريخ بني هلال وحروبهم ومخاطرات أبطالهم ، تمثل عوائد وأحوال وأخلاق البدو في ذلك الوقت وأبطالهم رجالا ونساء من سكان أواسط جزيرة العرب وبلاد اليمن وشمال أفريقيا ، والقصة تشتمل على عدة أقاصيص أو قصص ، منها قصة الامير رزق مع ابنه « أبي زيد » ، وخلاصتها أن الامير رزق تزوج الاميرة خضراء واستولدها ابنا هو « أبو زيد » وكان هذا الطفل أسود اللون فغضب أبوه عليه وعلى والدته وطردهما شر طرد من بيته فالتجأت الام المسكينة بابنها الى الامير فاضل رئيس احدى القبائل فأخذهما تحت حمايته ، ونشأ الابن في هذه القبيلة لا يعرف الا وليه وصديقه ، وغدا شابا اشتهر بالشجاعة والقتال ، ثم قامت الحرب بين قبيلة الامير فاضل وبين قبيلة الامير رزق ، وتقابل الاب والابن يريد كل منهما قتل الآخر جاهلين حقيقتهما ، فأسرعت الام اليهما وأوضحت لهما الخبر ، وهذا الموقف يشبه موقف القتال بين « زهراب » الابن و « رستم » الاب في « الشاهنامة » الفارسية ، ولكن موقف الشاهنامة أقوى وأروع اذ جعل الابن يقتل بيد الاب في اللحظة الاخيرة التي عرف فيها أباه ، أما القصص الاخرى لسيرة بني هلال فهي عن تغريبهم الى افريقيا حيث حاربوا « الزناتي خليفة » أمير تونس ، وقصة حروبهم مع الفرس وقصة استيلائهم على طنجة ، وأهم حوادث سيرة بني هلال مؤسسة على حروبهم وغزواتهم لشمال افريقية في القرن الحادي عشر الميلادي .

قصة سيف بن ذي يزن

سيف ابن ذي يزن هو أمير من أمراء اليمن من ام جارية رقيقة تركته في الصحراء رضيعاً فتكفلت به غزالة أطعمته وربته ، ولما كبر ذهب الى جيشه حيث قام بحوادث ومخاطرات خارقة ، فقد حارب الجن وتغلب عليهم بأساليب عجيبة ، ثم عاد الى وطنه بعد حوادث هائلة مريعة ، وهذه القصة مملوءة بخرافات جسيمة وهي تشبه بعض الشبه مخاطرات يوليسيس في الاوديسه

سيرة الظاهر بيبرس

قصة مؤسسة حوادثها على تاريخ حياة السلطان بيبرس ونفر من معاصريه .

الحواديت أو قصص العامة المصرية

ولننتقل الآن من قصص البطولة العربية او بالاحرى من قصص العامة القديمة الى موضوع آخر نشأ وترعرع في جو العامة ايضا وكان اثرا من آثار خيالهم القصصي وهو « الحواديت » . و « الحواديت » جمع « حدوته » باللغة العامية يقابلها بالعربية الفصحى « احدوثه » .

كلنا يعلم ما هي الحواديت لان كلا منا مر بدور الطفولة وهو الدور الذي يمتاز « بحواديته » التي لا ينضب لها معين ، والطفل من سن الثانية الى سن العاشرة والثانية عشرة يعيش فى جو الاحلام والخرافات ، يسمعها حواديت من جدته ووالدته ومربيته وخادمته العجوز أو يقرأها في كتب الاقاصيص الخاصة بمطالعة الاطفال . والحواديت عامة من بقايا الاساطير القديمة — أساطير العصور الاولى — تغيرت وتبدلت ثم نسج الخيال البشرى على منوالها فصارت لها بعض الصفات المحلية التي نشأت فيها . « وحواديتنا » التى سمعناها من « دادتنا » السوداء أو خادمتنا العجوز أو من أمنا وابينا تلك الاقاصيص الشرقية المشحونة بكثير من الخرافات ، ذات الخيال الشرقي والالوان الشرقية هي أيضا من ميراث الاساطير القديمة . ولكن ظهور كتاب ألف ليلة وما شابهه من كتب الاقاصيص العربية خصوصا قصص العامة (التى سبق شرحها الآن) كان له تأثير عظيم فى ابتداع الحواديت وتكوينها وانتشارها يؤيد ذلك ما نجده فيها من الخيال الفارسى في الاوصاف الغريبة والخيال العربى فى وصف الشجاعة والكرم والوفاء وما شابه ذلك . وقد استعان أكثرهم بالخرافات التى نشأت حول الديانة الاسلامية فجعلوا منها أدوات صالحة لاقاصيصهم كما استعانوا أيضا بالصور المحلية والنظم الاجتماعية التى ألفت في جوها هذه « الحواديت » . لذلك رأينا فيها الغول والجان وطبقات الارض السبعة المسكونة بالعفاريت ، وأبطال الحروب والحب كالشاطر محمد والشاطر حسن

وست الحسن والجمال ـ أشخاص لا تخلو قصة مهمة من أحدهم ، والسحرة والمدن المسحورة والاماكن المخيفة الناصبة بالشياطين ثم السلاطين ووزراء الميمنة والميسرة والجند والاعوان وهلم جرا . ولكن الشيء الذي امتازت به هذه « الحواديت » هي الخلط الذي ليس بعده من خلط . فربما جمعت قصة واحدة شتى المناقضات الزمنية المستحيلة الوقوع الا فى عصور ودهور مختلفة . وجميع هذه « الحواديت » « دمجاء » كما يقولون . أى انها تبدأ بالشر والحزن ثم تنتهي بالخير والفرح . فمن تغريب واضطهاد وعسف وقسوة وتفريق بين الاحبة ونصب للمكائد على يد الاشرار وانتصار الظالم حينا من الدهر الى عودة والتقاء ، وتنكيل بالظالمين ، واحتفاء وتكريم بالمظلومين ، واقامة معالم الافراح والليالى الملاح لزفاف (ست الحسن على الشاطر محمد) . وفي هذه الحواديت يجب أن تنتصر الفضيلة وأن تهزم الرذيلة وأن يعيش البطل بالرغم مما يصادفه فى حياته من مصادمات عنيفة مع الاعداء ـ يجب أن يعيش ويحيا حياة المعجزات ليحظى فى النهاية بزواج من احبها وأحبته فيعيش معها فى (التبات والنبات يخلفون الصبيان والبنات حتى يجيئهم هادم اللذات ومفرق الجماعات) .

ولكن هذه القصص على تشويهها ونقصها وخلطها الفاضح فى الازمنة والتاريخ يمكن للباحث المدقق أن يستخلص منها بعض الفوائد الاجتماعية والصور المحلية فيخبرك بالوقت الذي ألفت فيه والذهنية التى استنبطتها . ولا ريب في أن شخصية « الجندى » (بكسر الجيم) فى كثير من الحواديت المصرية الشائعة عندنا الآن هى صورة ذلك « الجندى » (بضم الجيم) التركى أو المملوكى الذي كان مثال الغشومة والقسوة والجهل . وهل رأى العامة في ذلك الوقت وهم المحكومون على أمرهم المرهقون بالضرائب الفادحة من يسامون العذاب دائما ويقابلون القسوة بصبر كبير الا ذلك المنفذ الصغير منفذ الحواديت يصورون فيها حكامهم الذين كانوا كلهم من طبقة الجنود المدججين بالسلاح بصورة المغفلين الجهال حيث يلاقون عقابهم الصارم على قسوتهم واستبدادهم على يد أحد « الشطار » من أبناء الوطن . كانت هذه الحواديت بلا ريب الوسيلة الوحيدة لاظهار نفسية ذلك الشعب المظلوم .. هذه ظاهرة من عدة ظواهر اجتماعية يمكن للباحث أن يشرحها ويستدل منها على أمور نفسية خافية .

لذلك اهتم بها الافرنج وكتبوا عنها وطبعوا منها في مطابعهم . ومنهم الاستاذ « ليتمان » المستشرق الألماني فقد طبع مجموعة منها في « ليدن » سنة ١٩٠٥ ميلادية وسماها « مجموعة قصص عامية » .

النهضة القصصية الحالية

كانت بلاغتنا العربية وما زالت تكاد تخلو من النوع القصصي اذا قيست بأدبيات الأمم الافرنجية . وكان كتابنا حتى العهد الأخير من شعراء وناثرين مقلدين أكثر منهم مبتكرين فكانوا يسيرون على نظم السلف في الآراء والأفكار والاوصاف فلم يأتوا بشيء جديد بل أضاعوا شخصياتهم وأفنوها بتهالكهم على القديم فحسب . لذلك لم نجد من كتابنا من قدم لنا رواية قصصية أو أخرى تمثيلية أو أقصوصة مصرية . بل كان همهم الوحيد أن يجيدوا فن التراسل على نمط الهمذاني والحريري أو نظم القصائد باكين على الاطلال وهائمين بحب هند ودعد وواصفين النوق والرمال ثم مادحين أوهاجين . وربما وصف الشاعر المصري المهند والسمهري وصاح بملء فيه صياح أبطال الحماسة القدماء وهو لم ير السيف في حياته الا معلقا في رداء الشرطي ! فجاءت بلاغتنا المصرية — الا القليل منها — سخيفة تثير الضحك لا الأعجاب . ومن هنا لايحزن ومنذ أواخر القرن الماضي ونحن لا نملك من أدبنا المصري القصصي غير كتاب واحد هو « حديث عيسى بن هشام » . اذا أردنا أن نتحدث عن البلاغة القصصية الجديدة لم نجد الا « حديث عيسى بن هشام » واذا أوصينا أحداً بقراءة كتاب قصصي جيد لم نجد الا « حديث عيسى بن هشام » ؛ واذا افتخرنا بأدبنا القصصي لم نجد الا « حديث عيسى بن هشام » . حتى ضقنا ذرعا به وضاق هو الآخر ذرعاً بنا . ووددنا أن نسكت بدلا من أن نتكلم عن كتاب واحد فقط . ولكن عزاءنا اليوم أننا بدأنا نرى بزوغ النهضة القصصية المصرية في أفق أدبنا . فاذا تعهدها القائمون بها بالعناية والرعاية والاتقان والجودة سارت سيرها الطبيعي بلا عائق وانتجت نتاجاً قوياً سيكون ميراث المستقبل من بلاغتنا القصصية الجديدة . وانا ذاكرون هنا من لم تخنا ذاكرتنا في ذكرهم من مؤلفينا الجدد الذين وهبوا الأدب المصري القصصي

مبتكرات عقولهم . ولو كان المقام متسعاً أمامنا أو كنا في موقف النقد لكنا أفسحنا للقلم مجالا أكبر مما سنفسحه له الآن . ولكن عذرنا في ذلك واضح . فمقدمة كتاب قصصي لا تستطيع أن تحوي نقداً مسهباً تحليليا للكتاب المصري وكتبهم لذلك نترك للنقاد ميدانهم يجولون فيه ونقصر بحثنا على ذكر مختصر للكتب القصصية التي ظهرت في عالم البلاغة المصرية والمؤلفين القصصيين الجدد الذين تصدوا للقيام بهذا العمل الجليل .

حديث عيسى بن هشام لمحمد بك المويلحي

أول كتاب ظهر في الأدب المصري القصصي جدير بأن نضعه بلا محاباة في الصف الأول من مؤلفاتنا القصصية . اتبع صاحبه في تأليفه طريقة المقامات واستعان بأسلوبها المسجع في كثير من مواضعه . لذلك لا نستطيع أن نسميه رواية قصصية بالمعنى المعروف عندنا الآن لخلوه من « الحادثة » أو « العقدة » التي تمتاز بها القصص المصرية . ولكن هذا لا يقلل من قيمة الكتاب للدقة التي استعملها المؤلف في رسم الشخصيات وتحليلها

ليالي سطيح لحافظ بك ابراهيم

هذا الكتاب أقرب الى المقامات من حيث الأسلوب والطريقة من حديث عيسى بن هشام . بل يكاد يكون مقامة واحدة طويلة تتضمن نقداً على الاخلاق والعوائد المصرية . ليس فيه شخصيات بارزة مرسومة بريشة قصصية كما في حديث عيسى بن هشام لذلك فاق عليه الاخير في ميدان البلاغة القصصية المصرية وسبقه بمراحل كثيرة .

قصة زينب لمصري فلاح (الدكتور حسين بك هيكل)

هي قصة من حياة الارياف جديرة بأن تسمى بحق أول رواية قصصية مصرية . راعى مؤلفها في صياغتها كل ما يتطلبه الفن القصصي الراقي فأتت قطعة تامة النضوج في بلاغتنا الحديثة . حوارها كله باللغة العامية وهي ميزة يجب أن

نقرؤها بالحمد والشكر للمؤلف . أسلوبها بسيط وجميل خال من التكلف والتمحل يحبب للانسان القراءة . ولكن مما يؤسف له أن صمت المؤلف صمتة نخشى أن تكون دائمة . ولعل قلة الرواج الذي صادفته القصة في عالم الادب المادي والحالة السياسية التي طوحت بالمؤلف في لجنها اليوم كانتا من أهم الاسباب التي دعت الى هذا الصمت .

(لا أذكر متى ظهرت هذه القصة بالتحقيق وربما كان ذلك حوالى عام سنة ١٩١٢ والنسخة مع الأسف خالية من تاريخ الطبع)

قصص جرجي زيدان التاريخية

لولم ينل الاستاذ جرجي زيدان شهرته الواسعة بكتبه العلمية التاريخية لكفته قصصه التاريخية برفعه الى هذا المستوى نفسه . ولكن قلة العناية بالبلاغة القصصية في العالم العربي عامة والمصري خاصة عدا بجمهور القراء أن لا يأبهوا كثيرا بهذه القصص النفيسة .

وتسمى هذه القصص « سلسلة روايات تاريخ الاسلام » وعددها ثمانية عشرة أتى فيها مؤلفها بتاريخ الامة الاسلامية في عصورها المختلفة في قالب قصصي مستحب . بدأها « بفتاة غسان » ثم « بأرمانوسة المصرية » وختمها « بشجرة الدر » . وكتب غير هذه السلسلة أربع روايات أخرى عن تاريخ مصر في عهد المماليك وعن الحرب السودانية المهدية . وقد كتب من روايات السلسلة نفسها روايه عن الانقلاب العثماني فى تركيا فكأنه استوفى تاريخ الاسلام ومصر جميعه قصصا . وأسلوبه القصصي والعلمي على حد سواء سهل للغاية ومقبول . أما صوغ حوادث التاريخ بأسلوب قصصي فلا ريب في انه بلغ فيه شوطا كبيرا من الاجادة والنبوغ . وحسبه أن معظم هذه القصص قد طبع للمرة الثانية والثالثة وترجم بعضها الى اللغات الاجنبية مثل الفرنسى ، والشرقية مثل الهندي والفارسى والتركى .

نتائج الاحوال فى الأقوال والأفعال : لعائشة تيمور .

منذ ثمانية وثلاثين سنة هجرية ظهر فى عالم الأدب العصري كتاب قصصي

المنشئة الأديبة السيدة عائشة تيمور هو كتاب « نتائج الاحوال في الأقوال والافعال » . (السيدة عائشة تيمور الشاعرة المعروفة احدى أركان النهضة النسائية المصرية وتعتبر أول كاتبة وشاعرة مصرية في أواخر القرن الماضي) . ليست شهرة هذا الكتاب في جودته أسلوبا وطريقة ووضعاً بل في وقت ظهوره وفي الكاتبة التي ألفته . الكتاب يتضمن قصة واحدة على نمط قصص « الحواديت » المصرية بشكل أرق وأجمل . وأسلوبه مسجع على الطريقة القديمة في العصر العربي المتأخر . ولكن ميزته ان مؤلفته سيدة شرقية مصرية وانه كتب في عصر كان فيه الاهتمام بالأدب والكتابة مقصورا على الرجال دون النساء . أضف الى ذلك قلة الادباء من الرجال في ذلك العهد وكيف أن التيمورية بزت كثيرا منهم بشعرها ونثرها . واذا علمنا اهمال جمهور القراء والكتاب في هذا العصر لفن القصص استطعنا أن نقدر للتيمورية مجهودها وجرأتها ونبوغها في ذلك الوقت الذي كان فيه ظلام الجهل يكاد يكون شاملا الجميع .

أقاصيص المنفلوطي في النظرات والعبرات .

اشتهر المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي « بنظراته » التي كان ينشرها في المؤيد كل اسبوع مرة والتي جمعها وزاد عليها مما لم ينشره فجاء سفرا في ثلاثة أجزاء جمع شتى المواضيع من انتقادية وأدبية واجتماعية وقصصية . ثم نشر كتاب العبرات وهو مجموعة أقاصيص منها المصري المؤلف ومنها الاجنبي المقتبس والمترجم . لذلك يمكننا أن نعتبر المنفلوطي كاتبا قصصياً عالج فن الاقاصيص المصرية .

كانت طريقة المنفلوطي في كل كتابته العناية بالاسلوب واللفظ أكثر من عنايته بجوهر الموضوع خصوصا في قطعه القصصية المؤلفة ، وان كان هذا لا يمنعنا من أن نقدر له آراء قيمة في بعض قطعه الأدبية والاجتماعية وكذلك القصصية . ولكننا نقدر له فوق كل شيء سلاسة أسلوبه وجماله ورقة ألفاظه ووضوح أغراضه مع محافظته على اللهجة العربية الصحيحة . يمكننا أن نجاهر بلا خشية ولا لوم أن المنفلوطي وان كان قد أجاد في أسلوبه القصصي السلس الجميل فقد فشل في مواضيعه القصصية ورسم أشخاصه فيها . فجل مواضيع أقاصيصه تافهة

يصح أن نضيفها الى مجاميع الامثال والمواعظ . اتبع في تآليفها طريقة المذهب « الرومانتيكي » المتطرف الذى يشوه فيه الخيال صور الحقائق الناصعة . أما أشخاص قصصه فهى أشباح ليس لها كيان ولا جسم تكاد تتلاشى أمام عينيك من شحوبها .

ما رآه العبوه للمرحوم محمد تيمور

ليس رائدي في كل ما كتبته غير الاخلاص والحق لذلك أرجو ممن يقرأ كلتي هذه عن تيمور الراحل فقيد أدبنا وصرحنا ان لا يتهمني بالتحيز والمغالاة في القول لاتصالى التام به . ان محمدا تيمورا شقيقي المحب اولا ، وصديقي الوفي ثانيا ، واستاذي الكبير ثالثاً ، من أعترف له أمام الناس جهاراً بالفضل التام على في كل ما أوتيته وما سآتيه من مجهود لا أعلم مداه ولا نتيجته . ولكن كل هذا ليس له تأثير على نفسى فى موقفى هذا وأنا أقرر الحقيقة التى لا أرغب في أن ازيد حرفا واحداً عليها . لذلك أقول بلا محاباة ولا غلو أن تيمور الراحل كان أكبر مؤلف روائى وقصصى مصرى وجد فى نهضتنا القصصية الحديثة . انى وأنا فرد من حاملى لوائه ، السارين على مذهبه وطريقته ، المنفذين رغبته ، المتممين لمطامحه وآماله . لا أعترف لقصصيينا الذين عالجوا الكتابة فى الادب المصرى بالفضل الا بقدر اقترابهم واجادتهم للمذهب الذي كان شعار الفقيد فى كل ما كتب وهو العمل على ايجاد آداب مصرية بالمعنى الصحيح . فاذا قلت أن « المنفلوطي » فشل فى أقاصيصه المصرية ذلك لانه لم ينجح فى اخراج صور ناضجة واشخاص حية بارزة من البيئة المصرية . واذا قلت إن الدكتور « هيكل » قد أجاد فى قصة « زينب » ذلك لانه نجح نجاحا يغبط عليه في ايجاد جو مصري صادق اللون في روايته . واذا قلت ان محمداً تيمورا هو أكبر مؤلف قصصي وروائى وجد في نهضتنا الحديثة ذلك لأنه قصر ميدانه على البيئة المصرية بأشخاصها وجوها وصورها وأجاد في اخراج هذه الصور في رواياته التمثيلية وأقاصيصه تامة النضوج من حيث جودة التأليف ودقة التصوير. والذى يهمنا من مؤلفاته — (ظهرت مؤلفات الفقيد في ثلاثة أجزاء وقد حوت كل ما كتبه من شعر ونثر وأقاصيص وروايات

تمثيلية) في هذا المقام هو أقاصيصه المسماه « بما تراه العيون » . اشتهر عن الفقيد أنه كان قوى الملاحظة الى حد بعيد ، تنطبع فى ذهنه صور المرئيات بخاصة عجيبة ، ماهر في التقليد الى درجة من الاتقان كبيرة ، دقيق الوصف ماهر في صناعة التأليف ، له مذهب في الآداب لايحيد عنه . قاصر كل مجهوده عليه وهذا المذهب كما أسلفنا الذكر هو العمل على « ايجاد آداب مصرية » تكون بمثابة مرآة تنعكس عليها بيئتنا . لذلك كتب أقاصيصه باتقان كبير ولا مشاحة في أنه اليوم أجدر أهل عصره في تبوىء اسمى مركز في بلاغتنا القصصية كما يصح أن نسميه بحق أول منشىء مجيد لفن الاقاصيص المصرية :

مؤلفون قصصيون آخرون :

لقد ظهر فى الوقت الحالى أى فى البضعة سنين الاخيرة بعد المرحوم محمد تيمور مؤلفون طالجوا فن كتابة الاقاصيص . وهم على قلتهم وقلة مؤلفاتهم يبشرون بمستقبل زاهر جميل . ولا ريب فى أن بلاغتنا القصصية فى المستقبل ستكون مدينة لهم بمجهودهم الصادق فى « العمل على ايجاد آداب مصرية بالمعنى الصحيح » ووضع أساس هذا الفن الجديد . ومن هؤلاء الادباء من لم تخن ذاكرتى فى عدهم هم : المرحوم عيسى عبيد مؤلف كتابي « احسان هانم وثريا » وشحاته عبيد مؤلف كتاب « درس مؤلم » وابراهيم المصرى وحسن محمود ومحمود عزى وزكريا جزارين والدكتور حسين فوزى وطاهر لاشين وخيرى سعيد وعبد القادر المازنى وحسن صبحى وسليم شحاته (نشرنا الاسماء بحسب ظهور الاقاصيص مع حفظ الالقاب) وغيرهم من الادباء القصصيين المصريين الذين يتكاثرون كل يوم فيزيدون ثروتنا الادبية القصصية .

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر اسمين اشتهرا فى عالم الادب القصصى العربى وهما المرحوم فرح أنطون والاديب نقولا حداد . الاول كتب رواية قصصية واحدة سماها « أورشليم الجديدة » وهى قصة شرقية عصرية نزعتها فلسفية اجتماعية . والثانى كتب عددا عظيما جداً من الاقاصيص والقصص المترجمة والمقتبسة والمؤلفة . ولكنه بعيد مثل رفيقه السالف عن نزعة « تمصير الآداب » أى خلق أدب مصرى فى بلاغتنا الجديدة لذلك أتت جميع قصصه

وليس عليها من طابع المصرية ألا القليل النادر. وهو يعد بحق أكبر كتاب العربية القصصيين كتابة . كثيراً ما يعالج في قصصه نشر الافكار والآراء اجتماعية كانت أو سياسية . وهو مؤلف محبوب من جمهور الشرق العربي عامة . ومن رواياته القصصية الجديرة بالاعتبار « آدم الجديد وحواء الجديدة ومجموعة اخوان العهد » .

ويوجد غير هذين الاسمين اسمان مشهوران. أولهما الاستاذ العلامة الدكتور يعقوب صروف والاستاذ الفاضل مصطفى صادق الرافعي .

الاول عالم معروف بعلمه في كافة الاقطار العربية ولكنه مع ذلك قد عالج فن الكتابة القصصية من زمن مضى فوضع ثلاث قصص مصرية ، شرقية ، عربية هي : « فتاة مصر وأمير لبنان وفتاة الفيوم » . والثاني كتب ثلاثة كتب قصصية عربية هي « المساكين ورسائل الاحزان والسحاب الاحمر » وروايات الدكتور صروف روايات شرقية اكثر منها مصرية تصف « المجتمع » الذي كتب عنه المؤلف وصفاً جيداً . أما كتب الرافعي فمشهورة بروعة أسلوبها العربي الصميم الذي لايخلو في كثير من الأحيان من غموض ظاهر يصدم القارىء القصصي أثناء مطالعته . وهي كتب فلسفية اكثر منها قصصية .

كلمة ختامية

والآن وقد فرغنا من هذا الموضوع الطويل اتقدم الى القارىء الكريم معتذرا في الاطالة راجيا منه أن يغض النظر عن غلطات ارتكبتها بدون علم مني أو ضعف أو تقصير تورطت فيهما اضطرارا . فانما العصمة لله على كل حال . كما الفت نظر كتاب القصص والاقاصيص المصريين الى شيء هام وهو انني لم استوف بلا مراء ذكرهم جميعا ولم اوف حق مؤلفاتهم من الشرح والتحليل وعذري في ذلك انني لم اكتب الا عمن عرفتهم وعمن قرأت شيئا من أعمالهم . وان مقدمة لكتاب قصصي صغير لاتسع اكثر مما كتبت ، خصوصا وان مؤلفاتنا الحديثة رهن الزمن لم يأخذها بعد جمهور النقاد « بالغربلة » الصحيحة فيظهر جيدها من رديئها :

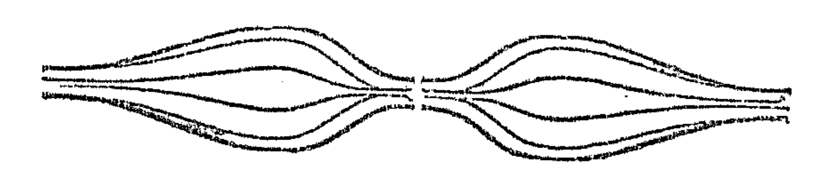
والى هنا أختم قولي والى اللقاء ان شاء الله في مجموعتي الرابعة

الجزيرة : في ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥ — محمود تيمور

مصادر المقدمة

أكتب فيما يلي أسماء الكتب والمقالات التي اعتمدت عليها في تأليف مقدمة هذا الكتاب :

مقدمة تاريخ الحضارات الاولى لغوستاف لوبون	(باللغة العربية)
ادبيات اللغة العربية لزيدان	»
كتاب الفصول للعقاد	»
حديث الاربعاء للدكتور طه حسين	»
كتاب تاريخ الادب العربي للزيات	»
كتاب المنتخب في تاريخ آداب العرب لعطايا الدمشقي	»
ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين	»
الاغاني	»
مقالات الآنسة مي عن السيدة عائشة تيمور «في المقتطف»	»
مقالات عن القصص في الادب العربي للاستاذ الدكتور ضيف والادباء حافظ محمود وعلي أحمد الميهي واسرائيل ولفنس المنشورة في «صحيفة الجامعة المصرية» المجلد الاخير	»
المعلمة البريطانية الكبرى (دائرة المعارف)	(باللغة الانجليزية)
كتاب «كاسل» عن المعلومات العامة	»
مختصر الادبيات لمؤلفه «درنكوتر»	»
كتاب العوائد والأخلاق في مصر لمؤلفه «لين»	»
كتاب آداب العرب لمؤلفه «هيار»	(باللغة الفرنسية)



الشيخ سيد العبيط

الشيخ سيد العبيط

حدثني صديقي قائلا :

كنت في التاسعة من عمري عندما شاهدت الشيخ سيد لأول مرة . كان رجلا ضخم الجسم الى حد هائل مخيف ، طويل القامة غليظ الرقبة والوجه ، له ملامح مشوهة وعينان جاحظتان وأنف أفطس كبير . كنت اذ ذاك بجوار الساقية في ضيعة من أملا كنا اراقب الثور وهو يدور دوراته المعتادة بتمهل لا يخلو من ملل وتعب ، وأسمع خرير المياه المتدفق من القواديس الصاعدة النازلة مختلطا بصوت أزيز الساقية نفسها وغناء الغلام الجالس عليها يحث الثور بين حين وآخر لئلا تفتر همته أو يسكن الى الراحة . رأيته مقبلا بجسمه الهائل تكاد تحجبه عن الانظار ظلال أشجار اللبخ والتوت الممتدة الأغصان . كان يمشي متمهلا وجلبابه الابيض القذر — الذي لا يملك سواه على جسده — يمتلىء بهواء الريف فتارة يزيده ضخامة على ضخامته وطوراً يعلو ويهبط على جسمه فيكشف للرائي سيقانا كسيقان الفيل لوناً وخشونةً وشكلاً . جاء متمه

يلهث من تعب المسير وقيظ الشمس ... يه الى
الامام مستعينا بها في السير كما يستعين النوتى بمجداف قاربه فى
البحر ، بينما يده الاخرى تقبض على طرف زكيبة ملقاة على ظهره
... ود عليه المحسنون من فتات الخبز . لم يأبه لشيء مما حوله
بل اتجه نحو القناة التي تستمد مياهها من الساقية وهبط بحمله عليها
فى المكان المعد لسقى المواشي وأخذ يرتوى بشره كما يرتوي
الحيوان بعد يوم كله تعب ونصب . كنتُ هادئاً ساكنا ، بين
يدي بعض الاغصان الصغيرة قدمها الى عم خضر البستانى عند
ما طلبتُها منه ، مشغولا بنزع قشرتها بمبراتى الخاصة وبتقطيع
أطرافها وتهذيب شواذبها لتصلح أن تكون عصياً أختار منها
ما أريد عند ما أركب البغلة للنزهة فى الغيطان . ففزعت فزعا
شديداً حينما شاهدت الرجل زاده فزع الغلام الذى كان يغنى على
عجلة الساقية والذى انقطع غناؤه دفعة واحدة وظهر على محياه
الاضطراب والخوف . فصرختُ استنجد بأعلى صوتى . فجاء
البستانى على عجل . ولما رآنى خائفاً هدّأ روعى بكلمات عذبة
ثم ابتسم ابتسامة جميلة انبعثت من وجهه المجعد ذى اللحية
المستديرة والشعر الاشيب وقال :

الشيخ. ده الشيخ سيد الراجل الصالح صاحب الكرامات

ثم تركني واتجه نحو الشيخ سيد ، وكان قد مهد لنفسه بجوار القناة مكانا لنومه . وأمسك بيده وقبلها ثم قال له :

— إدع لي يا شيخ سيد إدع لي ربنا يفتحها قدامي ويشفي أم عبد السلام مراتي الغلبانة .

فأجاب الشيخ سيد بصوت غليظ لا يكاد السامع يتبين كلماته

— يلعن أبوك انت وهي

فابتسم البستاني وأخذ يد الشيخ سيد فقبلها وهو يقول :

— ربنا يسمع منك .

ثم تركه . وكان الرجل قد تمدد بجوار القناة متوسداً احدى ذراعيه واستغرق في النوم بعد لحظة قصيرة . وجاء عم خضر البستاني فجلس القرفصاء بجوار المصطبة التي كنت جالساً عليها ثم أمسك بالاغصان وكان يفحصها بعينيه الطيبتين ثم قال :

— العُصْي كويسين خالص عفارم عليك

ولكني لم أكن أفكر في العصى في تلك اللحظة فبادرته قائلا :

— أهو شتمك وبرضه بست ايده

فعرف الرجل ما يجول بخاطري وناولني الاغصان ثم تكلم بصوت هادىء وثغره يبتسم دائماً:

— تعرف يا سيدي . اللي يشتمه الشيخ سيد ربنا يرضى عليه

— دا راجل يخوّف ياعم خضر . أنا ما خافش من الطور اللي بيدور الساقية دي قد ما خاف منه .

— ولكن دا ما يئذيش حد أبداً لازم تحبه عشان ما ربنا يحبك . داولي من أولياء الله

وكنتُ أعتقد أن الاولياء عندما يرحلون الى العالم الآخر تبني لهم القباب وتنذر لهم النذور وتوقد حول مقابرهم الشموع . لقد زرت مع الحاجّة أم محمد مقام السيدة زينب والسيدة نفيسة وسيدنا الحسين . وزرت مع جدتي حينما كنا بالقرب من طنطا مقام السيد البدوي . وقد قدّمت بنفسي وكان معي سرور أغا دستة من الشمع للشيخ الأربعين الذي كان مقامه بجوار منزلنا الكبير في القاهرة . فهل الشيخ سيد وليّ كهؤلاء الأولياء . وهل كانوا يماثلونه ضخامة في الجسم وقذارة في الملبس وقبحاً في الصورة . لقد كنت أتخيّل الأولياء من الذكور ، نظاف الملابس

جميلي الصورة والهيئة ينبعث من وجوههم النور الملائكي يكاد يخطف الابصار ، يلبسون على رؤوسهم العمامة الخضراء الكبيرة ويرتدون القفاطين والجبب الحريرية البيضاء . أما الاناث منهم فلا يختلفن عن الرجال الا في وضع النصيف الابيض النظيف على رؤوسهن. هكذا كنت أتخيّل سيدنا الحسين والشيخ الاربعين والسيد البدوى والسيدة زينب وغيرهم من الاولياء . هكذا كنت أتخيل الاولياء نساءً ورجالا فلما شاهدت الشيخ سيد وعلمت من عم خضر البستانى أنه ولىّ من أولياء الله داخلنى الشك في كلامه . وظننتُ ان كبر سنه قد أثر فى عقله فلم يعد يميز بين الأشياء . ألاَ يكون هذا الرجل القذر الذى يريد أن يضمه عم خضر فى صف السيد البدوى والشيخ الاربعين شيطانا من شياطين جهنم . واسررتُ للبستانى بفكرتى الأخيرة ثم اردفتها بتحذيرى اياه من الاقتراب منه مرة اخرى لئلا يسخطه قردا ثم يقذف به الى جهنم . فضحك الرجل ضحكا متواليا ثم قال :

— الشيخ سيد مايسخطش الناس قرود أبدا وما يرميهمشى فى جهنم . داهوّ اللى بياخدهم من ايدهم ويوديهم للجنة .

فصرخت متضايقا :

ـ دا وشه وحش قوى وكان سمين خالص . انت مش شايف كرشه . ياشيخ هى الاوليا لها كرش برضه كده .

ومن ثم تربع عم خضر واسند ظهره على جذع شجرة مقطوعة كانت بالقرب من المصطبة وأخذ يحدثنى عن الشيخ سيد حديثا طويلا . كان يتكلم بصوت هادىء رزين وبعاطفة صادقة وايمان عميق ونفس مشبعة بحب الله مطمئنة الى رحمته وعدله وحنانه. وكان يغمض عينيه أحيانا اذا كان الحديث حديثا عاديا لايحوى إلا حوادث بسيطة هادئة . أما اذا أراد أن يقيم الحجة أو يأتى ببرهان أو أخذ يشرح كرامة هامة أتى بها الشيخ سيد فكان يفتح عينيه وينظر بحدة الى الفضاء اللانهائى الممتد أمامه حيث الغيطان الخضراء منبسطة انبساط البحر يموج عليها الزرع الاخضر الجميل . فكنت أخاله كانه يفحص أعواد الذرة ويعدماتحويها من حب وأوراق

ظل على هذا الحال يحدثنى برهة من الزمن لا أعرف مداها فعلمت منه كل مايستحق أن يعرفه الانسان عن حياة هذا الرجل . وقد تيقنت فيما بعد انه لم يكن وليا ولا شيطانا بل كان شخصاسىء الحظ مسكينا قد اصيب بالبله على أثر حادثة وقعت له ففقد كل صلة تربطه بالعالم الآدمى الذى يعيش فيه وأصبح كالحيوان سواء

بسواه يسترشد فى حياته بغريزته فحسب ، منحه الناس لقب الاولياء شأنهم فى كل معتوه ابله أو ماكر خبيث متظاهر بالبله . وهاك بعض ما أذكره من حديث عم خضر البستانى ، ومن حديث غيره من الفلاحين الذين سألتهم فيما بعد عن حياة الشيخ سيد ، وما استنتجته بنفسى عنه عندما كبرت .

كان الشيخ سيد فى بدء حياته رجلا عاديا ككل الرجال يفلح فى الارض ويعيش عيشة الفلاحين المتوسطى الحال . كان يملك هو وأخواه خمسة أفدنة وبضعة قراريط ، يشتركون فى حرثها وزرعها وتقسيم محصولها عليهم بالسواء . كانوا يسكنون كلهم فى دار أبيهم وهى دار ريفية قد وسعتهم جميعهم بزوجاتهم وأولادهم ومواشيهم وطيورهم . فقد كان لكل رجل زوجة وأولاد ، وللجميع جاموسة وبضع عنزات يقتاتون بألبانها ، وثور وبقرة يستخدمونهما فى حرث الاطيان ، وحمار يحملون عليه السماد والتراب والمحاصيل . والدار عبارة عن فناء ليس بالكبير ولا بالصغير ، تحيط به مساكن هذه الاسر الثلاث . وبين أبواب هذه المساكن مظلات مهدمة يربطون تحتها مواشيهم لتأكل وتنام . وكأنّ هذا الفناء ميدانٌ من ميادين الالعاب تمرح وتلعب فى أرجائه أطفال الاسرة

مع حيواناتهم . وكثيرا مايقفز الطفل الصغير الذي بلغ الثانية أو الثالثة على ظهر الثور فيدور به فى صحن الدار عدة دورات هادئة ثم يقوده من حبله ليسقيه من الحوض الذي تملأه مياه (الطلمبة الارتوازية) التى كان لرب الأسرة الراحل فخر اقامتها .

كان الشيخ سيد ــ واسمه وقتئذ « سيد أبو علام » ــ عميد هذه الاسرة الكبيرة لانه أكبر أخويه سنا ، رجلا رزينا عاقلا مجتهدا وأمينا . له الكلمة المسموعة عند أفراد عائلته . نزيها فى معاملته لا يطلب لنفسه أكثر من نصيبه . كان بمثابة القاضى أو الحاكم فى هذه المملكة الصغيرة يفصل فى كل خصومة ويحكم بالعدل ويسيّر الامور بما يراه نافعا للجميع . محترَم الرأى ينظر اليه الناس داخل داره وخارجها نظرة الاحترام والتبجيل . عاش هكذا الشيخ سيد حتى وافى عمره على الخامسة والاربعين ثم دهمته حادثة أليمة كانت سبب نكبته فى الحياة . كان راكبا ذات عشية حماره عائدا به الى داره فعثر الحمار عثرة قوية في طريقه انطرح على أثرها الرجل طرحة شديدة على الارض وأصاب رأسه حجر غليظ صدمه وأسال الدم منه غزيرا . وحمل على أثر ذلك الى منزله وبقى ثلاثة أسابيع وهو مصاب بحمى شديدة وهذيان دائم . وبعد أن التأم الجرح

وزالت الحمى أصبح السيد أبو علام غيره بالامس رجلا فاقد الذاكرة معتوها لا يستطيع تمييز أبسط الاشياء أمامه ، فاقد الصلة تماما بحياته الماضية . فلم يعد يعرف زوجته ولا أولاده ولا أخويه حتى ولا أمه العجوز التي كان شديد الحنو عليها لكبر سنها ولعطفها الدائم عليه . عاش هكذا ما ينيف عن العام وهو لا يفارق عتبة الباب . فأصبح طفلا من أطفال الدار يشارك صغاره وصغار أخويه لعبهم ومرحهم بل وطعامهم وشرابهم . ولكن الامر لم يطل اكثر من ذلك اذ استبد أخواه بالامر وداخلهما طمع الحياة وتملكتهما قسوتها فوجدا ان وجود هذا الأبله بينهم هو وأفراد اسرته العديدة حمل ثقيل عليهما وعالة لا يحتملانها فتشاورا في الامر ثم قر رأيهما على طرده هو وأولاده وزوجته وحرمانهم جميعا مما يخصهم من الأطيان ومحصولها . وكان للرجل ذرية عديدة تبلغ العشرة غير خمسة قد طواهم الموت في فجر حياته الزوجية الواحد بعد الآخر . وكان العشرة الباقية أغلبهم من الفتيات وكن اكبر الاولاد سنا . لم يترك الرجل من أولاده الذكور شابا مراهقا أو رجلا فتيا يستطيع أن يقاوم ارادة أخويه ويدافع عن حقوقهم المسلوبة قهراً . وخرجت العائلة من دارها والشيخ سيد بينهم كأنه دابة من دوابهم أومتاع من

أمتعتهم ، يقودونه كيف شاؤا والى حيث أرادوا . واستقر بهم المقام في دار مهدمة منحهم اياها بعض ذوى الخير لا تبعد عن العزبة كثيرا فعاشوا هناك عيشة البؤس والتعاسة يكسبون مكسبا ضئيلا يكاد لا يقوم بأودهم . فكانت الفتيات والغلمان يشتغلون في جمع القطن أو تطهير المساقي والترع واقامة الجسور ، كل ذلك بأجر زهيد قبلوه اضطرارا خوف الجوع والعراء . واستمر الشيخ سيد في بلهه فكان بلهاً هادئاً غير مزعج اذا استثنينا بعض أوقات يثور فيها ثورانا بسيطا فيسب ويشتم من يراه أمامه ثم يجرى خلف أطفاله الصغار ليضربهم . وكان يأكل كثيراً ولا يتحرك الا قليلا فغلظ جسمه ونما نمواً فاحشا . وكان غزير الشعر بالفطرة فلما اهملوا قص شعر رأسه وشاربه وحلق لحيته كما اهملوا نظافته تهدل شعره واشتبك بعضه ببعض وتلبك من الاوساخ فزاد في بشاعة وجهه . واختفت ملامحه القديمة الدالة على القوة والسيطرة والبأس خلف ذلك القناع الوحشي ذى العينين الشاردتين اللتين كستهما البلاهة طبقة غبراء أخفت وميضهما كما تكسو الاتربة زجاج المصباح فتخفي نوره المضيء . لقد زال كل ما كان يميز « سيد أبو علام » الفلاح المتقد نشاطا وذكاء وجرأة . زالت صورة الرجل العامل رب اسرة عديدة أفرادها

وحلت مكانها صـورة ممسوخة قذرة لاتشبه الاولى الا في بعض ملامح ضعيفة واهية تمحوها يد الزمن رويدا رويدا. وكأن الدهر لم يقنع بما فعله فمات زوجته تاركة أولادها العشرة تحت رحمة القضاء يفعل بهم مايشاء .

لم تكن أم الشيخ سيد الهرمة الضريرة بمقصرة في حق ابنها البائس . فكانت تأتى لزيارته في الخفاء من غير علم أخويه مسبرّة اياه بمـا تحضره له من طعام وكساء وما تمنحه إياه من حنان وعطف فكان يتلقاها ، وهو لا يعرفها ، بكل سرور وبشر ويجعل يسألها عما أتت له من الحلوى والفطائر كأنه قد ارتد أربعين عاما الى الوراء فأصبح طفل الامس الصغير . وكانت الام في تلك اللحظة ، لحظة مقابلتها له ، لاتفكر إلا في شيء واحد : ابنها الذى بجوارها ، ابنها فحسب ، بكل ما في هذه الـكلمة من معاني كبيرة لا يعرفها غير الامهات . وكأن ذلك الظـلام الذى غمرها منذ أمد طويل وتلك الشيخوخة التى هدت من قواها وأوهنت من نفسها قد محوَا من عقلها فكرة الزمن فكانت تعيش وهي لاتدرى كم من السنين مضت وكم من العمر بلغت . فحينما كانت تجلس بجوار ابنها الذى كان يشبه الاطفال باعماله وحديثه كانت تتخيله طفلها الصغير منذ

أمد بعيد فكانت تجالسه بجسمه الغليظ على ارجلها الواهية وتضمه الى صدرها وهى تمسح رأسه بيدها تسأله ماينبغي وتعطيه ماجاءت له به وهو يقبلها قبلات تنم عن شكر غريزى كشكر الحيوان الاعجم للشخص الذي يرعاه ويطعمه .

ولما سمعت تلك الام العمياء العجوز بوفاة زوج ابنها عز عليها أن تتركه وتترك أولاده بلا معين ولا ناصر فتركت ولديها الشديدين العاقلين وفرّت لاحقة بالابله تعيش واياه مقتسمة معه مضض العيش وبؤسه .

وكبر الغلمان الأربعة — أولاد الشيخ سيد — فوجدوا الرزق محدوداً والمزاحمة فى تلك الجهة على أشدها فلم يستطيعوا المكوث بين أبيهم وجدتهم واخواتهم وهاجروا لينجوا مما يهددهم فى الحياة من بؤس طاحن وفقر قاتل وهم شبان أشداء يتطلعون الى العمل ويطلبون المزيد من الحياة ورزقها . هجروا مكانهم وتفرقوا يبحثون عن الرزق فى ميدان الحياة الواسع . وما كان منهم ذلك كفرا بنعمة العائلة ولا نكرانا لمن عاشوا فى كنفهم وحمايتهم اطفالا وغلماناً ولكن هى الحياة بنظمها الطبيعيّة القاسية ، نظم تنازع البقاء والانانية ، نظم الجهاد

والتطاحن بلا رحمة ، تنزع الابن من أبيه والأب من ابنه وتدفعهم متفرقين يسيرون في طريق الحياة يتقاتلون تحت لواء الطبيعة ومن أجلها .

وبهجرة هؤلاء الأربعة نقص عدد أفراد الأسرة فأضحوا ستة غير الأبله والضريرة. ولكن زاد ضنكهم وبؤسهم وضرب الفقر عليهم ستاراً سميكاً حجب عنهم أبسط ما في الحياة من راحة واحقر ما فيها من مأكل ومشرب . ولم يرغب أحد أن يتخذ من بنات الشيخ سيد زوجة له لما كان عليه من فقر مدقع وذكر خامل واسم ضائع وحياة مهملة مرذولة لا يرضى أن ينتسب اليها أحد . وكانت بين الفتيات الست أربع كبرن حتى جاوزن سن الزواج بكثير فغدون آلة عاطلة في العائلة لا يتركن الدار الا للقيام ببعض الاعمال التي تناسبهن في ذلك السن . وقليلة مثل هذه الاعمال . فلما شعرت الام الضريرة بيد الفاقة القاتلة تتغلغل في احشائهم تكاد تأتي عليهم عولت على أن تعمل لتفريج الازمة . واعملت الفكرة رويداً فاستقر رأيها على الاستجداء بابنها ، فأم هرمة ضريرة ورجل ابله مسكين يحركان الشفقة ويستنديان الاكف الكريمة لبذل الحسنات.

وخرجت في اليوم التالي هي وابنها ، تجره جرًّا لعدم رغبته في

الخروج . فقد اعتاد حياة الخمول يأكل مما يأتونه به ويتمدد على أرض الدار العارية ينام ملء جفنيه . ذهبت به الى السوق وهكذا اليوم كله فلم يصادفا الا نجاحاً صغيراً . فعادا الى الدار ومعها ثلاثة ارغفة من « البتاو » كانت قوت العائلة فى ذلك اليوم . وتكرر الخروج كل يوم واعتاد الشيخ سيد رويداً أن يتجول بمفرده فى حارات البلدة وازقتها القريبة من العزبة حيث يوجد بعض دكاكين للمأكولات والملابس وقهوة لرجل رومى يجلس عليها موظفو المصالح الحكومية فى وقت الفراغ ومدرسو المدرسة الاولية وتجار القطن والحبوب ، هذا خلاف بعض منازل حقيرة منتشرة هنا وهناك . اعتاد الرجل ان يترك أمه على رأس احدى الحارات ويدخل متجولا ببطء يسير سيراً متعرجا . لا يمد يده لأحد ولا يسأل شخصا ان يهبه احسانا بل ينظر الى الكل نظرات تائهة ، يبتسم لهم تارة وطوراً تعلو وجهه سحابة مظلمة فيظل يتكلم بصوت مسموع يؤنب اشخاصا مجهولين ويناقشهم فى أمور تختص بفلاحة الارض وجمع المحصول . ثم يقف ويمد يده فى الهواء فيحركها حركات عصبية لا معنى لها وبعد ذلك يسير وهو يترنم بأغاني غير مفهومة . وكان بعض ذوى القلوب الرحيمة يجود عليه ببعض

المأكولات أو بقليل من الملاليم . فكان ينثر الدراهم على الأرض ويوزع على المارة ما معه من خبز ومأكولات تاركا الباقي من غير علم منه في زكيبته التي جهزته بها امه .

وبدأ الناس يجدون في هيئته الشاذة وذهنيته البلهاء ومظهره القذر البشع ما جعلهم يعتقدون فيه « الولاية » أي أنه شيخ من الشيوخ الاتقياء . فاطلقوا عليه لقب « الشيخ سيد » ولم يكن أحد قبل الآن يعرفه بهذا الاسم . وألِفَتْهُ الناس كما أَلِفَهُمْ . وازداد اعتقادهم فيه بانه شيخ وليّ منذ رأوه ينثر الدراهم على الأرض ويوزع الخبز على المارة فحسبوا ذلك منه زهدا وتحقيراً للحياة وكرها للماديات . ولكنه كان يُشبع بطنه الكبيرة عند بعضهم ممن كانوا يضيّفونه فيقدمون اليه أجود واشهى الأطعمة كسباً لرضائه وابتغاء لوجه الله . وهكذا اكتسب الشيخ سيد على توالي الايام عطف جمهور الناس ومحبتهم واعتقادهم بولايته . ومع ما كان يرميه من النقود وما يفرّقه من الخبز كان يتبقى في زكيبته بلا قصد منه ما يكفى لطعام وكساء عائلته . وبهذه الطريقة نجحت الجدة العجوز في دفع البؤس عن أولادها وإيجاد وسيلة منتجة يعيشون بها في الحياة .

ودخل الشيخ سيد مرة دكان ابى شوشة الجزار فبادره بقوله بلهجة مختلطة وكلام مشوش :

— ماقلت لك من زمان ياحمار ان الخير كتير . وحايجيلك قوامك . . . واحد . اتنين . . . تلاتة . . . الأردبين القمح ف الدوّار . . . الله يلعن ابوجدودك . . . اهو بقولك . . . اتنين . . . تلاتة . . . ربنا برضه حايطلعهم من عينيك . . .

فاجابه ابوشوشة الجزّار مبتسماً بتفكير :

— حيطلعهم من عيني ليه . . انا عملت حاجة

— عملت حاجة ! . . . الارض بقولك بارت . . . حوش ياولَه الميّه حوش لحسن حاتغرّق الدنيا . . . أما عجيبه ياناس . . .

فابتسم ثانيا ابوشوشة الجزار ثم اعطاه قطعة من اللحم وضعها الشيخ سيد فى زكيبته وخرج وهو يكرر كلامه بلا وعى . وجلس ابو شوشة بعد خروجه على المقعد الخشبي أمام دكانه ووضع يده تحت ذقنه مفكراً وناجى نفسه قائلا :

— الراجل ده صالح وولى من أولياء الله . . . يعني كلامه مايقعشى الارض .

ثم جعل يستعيد ماقاله الشيخ سيد وأخذ يفسّره على حسب

هواه وما يبتغيه ثم اشرق وجهه دفعة واحدة وصاح من اعماق قلبه :

— ما يكنشى الراجل بيتكلم عن مسألة الاطيان . . . اهي الجلسة بعد بكره . . . ماهو عدّ واحد اثنين ثلاثة . . . أما اذا صح كلامه وكسبت الفدادين . . . ياسلام . . .

ثم جعل يفكر ثانيا .

ومضت الثلاثة الأيام وكسب أبو شوشة الجزّار قضيته التي أطالتها المحاكم أكثر من خمس سنين فكسب بها قطعة أرض تبلغ الفدّانين كان البعض مغتصبها من أبيه . فأقام ليلة أنس وفرح ابتهاجاً بكسبه القضية وغمر الشيخ سيد بالهدايا الكثيرة من لحم وعيش وكسوة . وشاع هذا الخبر بين أهل البلدة وأهل العزبة فأخذ الكل يتسابقون للتقرب من الشيخ سيد واستجلاء غامض مستقبلهم من احاديثه البلهاء . وكان كل فرد منهم يؤوّل كلام الرجل على حسب ما يريده لنفسه وما يطلبه في حياته . وصحّ على هذه الطريقة كثير من تنبؤآت الشيخ سيد الغير المقصودة فكبر فى نظر الجميع قدرا ومهابة واجلالا .

ومما زاد فى شأنه حادثتان وقعتا اتفاقا وعدّهما الناس من أعظم كرامات الاولياء فانتشرت شهرته على أثرهما فى جميع انحاء الجهة .

الاولى هى :

كان يسكن البلدة رجل من مستخدمى الضيعة يدعى رفعت افندى ، من أصل شركسى ، يبلغ من العمر الثانية والستين ، قصير القامة نحيف الجسم ، بارز عظام الوجه ، له شارب متدلٍّ على ركني فمه على الطريقة الصينية ، يقوم بوظيفة ناظر للمواشي ومدير لمخازن الزراعة . رجل ثرثار أحمق مشهور بالقسوة والعناد . لايتكلم الا عن نفسه وعما قام به من الاعمال . أوجد فى قلوب تابعيه ومن هم تحت سيطرته كرها شديدا له تولد من عسفه وجوره . له زوجتان وعدة أطفال . الزوجة الاولى يُسكنها داراً من دور الضيعة ، وهى امرأة متقدمة فى السن ناهزت الثامنة والاربعين ، والثانية يُسكنها داراً فى البلدة وهى فتاة صغيرة لم تبلغ بعد الثامنة عشرة . وكان يميل بطبيعة الحال الى الثانية ويفضلها على الاولى لشبابها ونضارتها فأوغر بذلك الميل صدر الاخرى واضمرت له بغضا كان يتوالى على مر الايام .

كان رفعت افندى جالسا بجوار الترعة شأنه كل يوم مستظلاً بشجرة الجميز المتفرعة الاغصان ، المثقلة بالثمار ، يتناول طعام الغداء بمفرده . ويقوم بخدمته خادمه الخصوصى الصغير ـ غلام يناهز

الثانية عشرة . كان يأكل وهو مقطب الوجه يزجر الخادم لأقل هفوة ويبدو مقبحا الأكل وصانعه . وجاء فى ذلك الوقت الشيخ سيد مترنحاً من ثقل جسمه يجدف بذراعيه بجهد وتعب ، ويسير مدفوعا بالهواء الذى كان يملأ جلبابه الوحيد كما يملأ نسيم البحر شراع المركب فيدفعها الى السير فوق الماء . وكان ينفخ من شدة الحر وتعب السير ماسكا باحدى يديه زكيبته الفارغة . ودنا من رفعت افندى مسلما وجلس بجواره يحدق فيه وفى طعامه النظر كأنه يسأله أن يعطيه شيئا مما يأكل أو يدعوه لمشاركته فى الطعام كما عوّده الناس ذلك . فلم يلتفت اليه رفعت افندى ولم يردّ التحية بل زاد فى تقطيب ملامحه ، ولكن الشيخ سيد لم يفهم ذلك وجعل يتكلم كلامه المعهود يخبط فيه خبط عشواء . فتضايق الشركسى وكان يحتقر هذا الصنف من الناس وزجره بشدة فلم يرعو بل ظل على حاله يتكلم كأن لم يسمع شيئا . واسهب فى الكلام وبدأ يرفع صوته صارخا . فعيل صبر الشركسى وقام مهددا متوعدا ثم نادى على رئيس « الكلاّفين » وأمره بان يطرد الرجل المأفون فتلكأ رئيس الكلافين خائفا وأحجم معتذرا . فصاح رفعت افندى بشدة وغيظ وانتابته نوبة حماقة عصبية فجعل يسب ويشتم ويهدد بقبضته

فى الهواء ثم ركل صينية الاكل التى كانت باقرب منه فانتثر ما عليها على الارض وتدحرج بعضه الى الترعة فابتلعه ماؤها . واجتمع على صياح رفعت افندى جمع كبير من الفلاحين بينهم خطيب الجامع وخفير الدوّار واسطى الآلة البخارية وشرذمة من الاطفال والغلمان الذين اخذوا يصيحون فى وجه الشركسى صياح الهزء والسخرية . فانفجرت مراجل غضبه وقام الى الشيخ سيد — الذى لم يعر كل ماوقع أمامه أية أهمية — وأمسك به وجمع ما استطاع من قوّته الفانية فدفعه الى الوراء دفعة واحدة لم تؤثر فى الشيخ مثقال ذرة . وأغرق فى الضحك كأنه فهم ان الشركسي يريد ملاعبته فمد يده اليه ودفعه فوقع الشركسي على ظهره وقعة استثارت هزء الجميع فأخذوا يضحكون ساخرين . وقام رفعت افندى بعد خذلانه فوجد أمامه خصوما متوفرى العدد يتوسطهم الشيخ سيد بجسمه الهائل وساعده الصلب المتين فارتد مهزوما الى منزله الذى فى الضيعة ، محتقن الوجه ، منتفخ الاوداج ، يلوّح بيديه ويهدد لاعنا مزمجراً ، يتبعه جمهور من الصغار يصفقون خلفه وهم ينشدون أناشيد المجون والسخرية . ولم يكد يبتعد الشركسى وخلفه جيش الصبيان حتى أخذ الشيخ سيد مكانه على المائدة وجعل يجمع ما تصل اليه يده من فتات الخبز وبقايا الطعام

يساعده في ذلك بعض الفلاحين . وشرع يلتهم الاكل بشره وهو ينظر الى ماء الترعة الجارى نظرا مشدوها لامعني له فطنه البعض يراقب الاسماك الصغيرة التي اجتمعت بالقرب من سطح الماء تأكل بقايا طعام الشركسي الذي كان بعضه من نصيب الترعة .

وبعد أن ملأ بطنه بفضلات الأكل جمع ماتيسر له جمعه ثم وضعه في زكيبته وتوسدها متمددا بجوار الترعة ونام نوما عميقا .

وفي منتصف الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم انتشرت جلبة كبيرة يتخللها بعض الصياح والعويل من منزل رفعت أفندي الشركسي . واجتمع أمام باب المنزل رهط من فلاحي الضيعة رجالا وصبيانا يسألون ماالخبر . وتقدّم الجمع خطيب المسجد وكان له في قلوب الناس محبة واجلال فدخل المنزل ومكث فيه نيفا وعشر دقائق ثم خرج صامتا وتوجه الى « الدّوار » والناس يتبعونه . ثم اعتلى المصطبة القديمة وأمسك بيده عكازه كأنه قد تخيّل نفسه في الجامع يتهيأ لالقاء خطبة الجمعة . ثم أخذ يمسح لحيته الرّمادية بيده اليسرى مراراً وتكلم أخيراً فقال بصوت أجش رهيب :

— ياعباد الله . لقد هلك الظالم . وانّا لله وانّا اليه راجعون .

فلم يفهم البعض مارمى اليه الشيخ فى قوله ، واختلط الأمر على البعض الآخر ، وردّد جماعة من العجزة لم يصلهم كلام الشيخ الا ضعيفاً ضائماً غير مفهوم ــ كلمة الشهادة فصاحوا قائلين :

ــ أشهد أن لااله الا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله .

وأراد الشيخ حمزة أن يُفهم الناس ما أراد فقال بلغة الخطابة ولهجتها :

ــ أيها الناس لقد مات رفعت أفندي الشركسي والبقاء لله ..

فصاح الجمهور قائلا مستفهما :

ــ مات ؟ مات ؟

ــ مات رفعت أفندي أيها الناس لانه أراد أن يطرد الشيخ سيد وهو ولي من أولياء الله .

ثم أفاض يحدّث الناس ــ كأنه يخطب فيهم ــ عن موت رفعت أفندي وكيف حدث ، والاسباب التى أحدثته . ثم وصف لهم بأسهاب منظر المتوفى حين رآه فى منزله وكيف كان لون وجهه كالفحم سوادا ، وهـذا مايبرهن على أنه من أهل جهنم . وكيف كان كريه المنظر وحشى النظرات ، يداه قابضتان على بعضها بشدة وعناد ، وهذا مايثبت أنه مات بعد نضال عنيف مع أحد

أفراد الجن أرسله عزرائيل ليعذبه قبل قبض روحه . وجعل الشيخ حمزة يثبت للناس ويبرهن لهم كرامة الشيخ سيد في هذا اليوم وكيف أمات الشركسي هذه الميتة البشعة المؤلمة التي ليس وراءها الا جهنم بنارها ولهيبها وشررها لانه أهانه وطرده . فأمن الناس على كلامه وصدقوا .

وانتشرت هذه الحكاية في وقت قصير في الضيعة وما يجاورها من البلدان والضياع . وتطوع الشيخ حمزة الخطيب ذو اللحية الرمادية المهيبة والعكاز الطويل لنشر هذه الكرامة وايضاحها للناس وتفهيمها لهم فدب الرعب في قلوب الجميع وأصبحوا يرهبون الشيخ سيد ويخشون قوته المخيفة القادرة على اماتتهم وقذفهم في جهنم يصطلون نارها المستعرة . فبجلوه فوق ما كانوا يبجلونه وزادوا في تكريمه واطعامه اكتساب صداقته وتزلفا اليه ليمنحهم رضاه ورحمته .

أما حقيقة الحادثة التي وقعت لرفعت أفندي الشركسي وانتهت بموته فهي كما يلي :

وصل الشركسي الى منزله وصياح الصبية تتبعه وكان الغضب بالغا منه مبلغا هائلا فلم يجد أمامه غير زوجته وأولاده منفذاً ينفذ

فيهم غضبه فانهال عليهم بالضرب والصفع بشكل مؤلم مخيف . ولما تصدّت زوجته لحماية أولادها وحماية نفسها واجتهدت في رد أذاه عنهم أمسك برقبتها بشدة يريد خنقها بينما كان مسلطاً رجله في ضربها ضرباً مبرّحاً بحذائه الثقيل ذي المسامير الحديدية . فلم تعد المرأة تتحمل أكثر من ذلك وانقلب دفاعها عن نفسها وعن أولادها هجوماً ، وكانت امرأة بدينة الجسم لم تؤثر فيها متاعب الثمانية والاربعين ولم تنقص من قوتها فهاجمته — وهي التي احتملت من مكارهه ونقائصه وعسفه ماولّد في قلبها المقت والكره له والانتقام منه — وأمسكته بيديها الغليظتين وقذفت به على الأرض ثم أتت بوسادة من وسائد النوم فألقتها على وجهه ورمت بجسمها على الوسادة ومكثت هكذا برهة من الزمن كانت كافية لأن تزهق أنفاسه وتميته ميتة بشعة مؤلمة . وهكذا مات الرجل ضحية جهله وحمقه وسوء خلقه . ومُحيت معالم الجريمة في ذلك الجو المائج بالترهات والتضليل ، فرحل رفعت افندي الى العالم الآخر غير مأسوف عليه مشيعاً بالسخط الشديد .

وبينما كان الشيخ حمزه خطيب الجامع معتليا مصطبة الدوّار يحدّث الجمع حديثه المشهور عن موت الشركسي كان الشيخ سيد

يتمطّى بصلبه ويفتح فاه بشدة يملؤه بنسيم العصر العليل . ثم أخذ يجمع زكيبته وقام بتكاسل وخمول فمرد جلبابه للهواء كالشراع وحرّك يديه الى الامام والى الخلف كالمجاذيف وسار سيره المعهود لا يلوى على شيء الى حيث لا يعلم هو ولا الناس أجمع .

أما الحادثة الثانية : فهى وان اختلفت عن الاولى فى حوادثها فقد كان لها فى عقلية الجمهور تأثير لا يقل عنها .

كان للشيخ سيد ست بنات كما اسلفنا الذكر منهن من جاوزن سن الزواج فى عرف الفلاحين ومنهن من غدون صالحات له .
وحدث ان شابا شاهد مرة كبرى البنات وكانت تملأ جرّتها من الترعة التى بالقرب من داره فاعجبته وتزوجها . وكان له غيرها زوجتان لم تلدا له ما كان راغباً فيه من ذرية . ولم يمض على زواجه من كريمة الشيخ سيد خمسة أشهر حتى وجد الطريق أمامه ممهداً الى منصب « العمودية » فقد وقعت حوادث لم تكن في الحسبان عدّها الفلاّحون من قبيل المعجزات ساعدت الرّجل لارتقاء هذا المنصب الذى لم يكنْ يخطر في باله يوماً من الايام ان يناله . فطفح قلبه بالسرور وعدّ زواجه من كريمة الشيخ سيد كرامة جليلة رفعته لأن يكون عمدة البلدة ورئيسها ، صاحب الكلمة المسموعة النافذة . وبعد مضى أربعة أشهر من ارتقائه

منصبه الرفيع رزقه الله من هـذه الزوجة صبيين توأمين كان لظهورهما في عالم الحياة رنة سرور لاتوصف عند والدهما الذي كان يترقب أمثالهما بفارغ صبر منذ سنين عديدة .

وانتشرت هذه الحادثة انتشار حادثة الشركسي فزادت أهمية الشيخ سـيد واقبل الناس من كل حدب وصوب يطلبون بناته زوجات لهم فتزوجن في وقت قريب من اشخاص معروفين ذوي مكانة وجاه في البلاد . وخلت الدار بساكنيها ما عدا اثنين هما الام والابن — الضريرة والأبله . وكان في مقدورهما ان يرحلا من ذلك الكوخ ليسكنا منزلاً من منازل بناتهما فيعيشان في رعاية موفورة ورخاء مستديم ولكنهما آثرا هذا الكوخ وما يحويه من بسيط العيش وحقير المسكن بعد ان أُصلح ورُمم فصار يحمي ساكنيه حرارة الشمس صيفاً وبرد الهواء شتاء . ولم يقبلا فيه من الأثاث الذي تبرع به لها أزواج بناتها الا القليل ، فقد اعتاد الشيخ سيد ان ينام على الغبراء وليس عليه الا رداؤه الواسع متوسدا زكيبته بما فيها من فتات عيش وفضلات طعام . وهكذا عاش الابن والأم عيشة لايشكوان منها جوعاً ولا تعباً . وقبعت الام في عقر دارها لاتخرج منه الا لتملأ الجرّة أو لتجلس على عتبة الباب تستنشق

الهواء صباحاً أو بعد الاصيل . اما ابنها فقد اعتاد الخروج صباح كل يوم فلا يرجع الا في المساء مملوءة زكيبته بافضال المحسنين . وكان الجميع يتسابقون لاطعامه ومنحه مايستطيعون الجود به فكان يزور مختلف الضياع والبلاد ، ويجوب سوق الجمعة كل أسبوع وسوق البلدة كل يوم ، مبجلا محترماً مخوفاً من الجميع ، يأكل حيث يريد أو بالاحرى حيث تقوده المقادير حينما تطالبه بطنه بالطعام ، وينام نهاراً في المحل الذى تقذفه اليه قدماه بجوار ترعة ، أو بالقرب من ساقية ، او في زريبة المواشي ينام على مافيها من تبن وروث ، أو على عتبة جامع يسد بابه بجسمه الهائل فلا يدع أحداً يدخل أو يخرج منه ، أوفي الغيط أوفي الطريق أو في السوق ... في المكان الذى يشعر فيه بتعب جسمانى . . .

هكذا عاش الشيخ سيد وأمه سبع سنوات فى رخاء وسعادة من العيش يغبطهما عليه كل فقير يكسب عيشه بنضال شاق فى الحياة .

***

وكنتُ كلما عدت الى الضيعة في فترات الاجازات المدرسية أرى الشيخ سيد على حاله لم يتغير . وقد كنتُ أمنتُ جانبه

فاستطعت ان اسمع كثيراً من كلامه اللغو ولهجته الغريبة . ومضت ثلاث سنوات على آخر زيارة لي للضيعة . فلما عدت اليها وعمرى اذ ذاك السادسة عشرة وجدتُ الحال قد تغير وسمعتُ من الكثيرين شكاية مُرّة من الشيخ سيد ، ورأيت التمرد يسرى رويداً فى القلوب فعلمت أن العاصفة أوشكت أن تهب . وسألت الكثيرين عن سبب هذا التذمر فكانت اجابتهم واحدة وهى أن الرجل قد ساءت أخلاقه أو بالاحرى ازداد جنونه لدرجة أصبح من الصعب احتمالها . وقد ساعدتنى الظروف أن أرى الشيخ سيد وهو بحاله الجديد فعلمت أن جنون الرجل قد انقلب من جنون هادىء وديع الى جنون هائج مضطرب خطر . ولم يكن ذلك ذنبه بل ذنب المرض الذى اتخذ له هذا الطريق الجديد من تلقاء نفسه على حسب تطوره .

بدأ الناس يلاحظون هذا التغيير فى حالة الشيخ سيد منذ سنة فقد ظهر بسيطاً لا يشعر به أحد ثم ازداد رويداً حتى أصبح فى نهاية العام شديداً غير محتمل . فانتبه الناس لأمره على أثر ما كان يلحقهم من أذاه ومكروهه واساءاته المتكررة الخطرة .

احتمل الناس الأذى فى بادىء الامر اعتقاداً منهم بأن الشيخ

سيد لا يلحق الأذى الا بمن يستحقه ولا يلحق الضرر الا بمن اقترف ذنباً ولكنهم وجدوه قد ساوى بين الجميع ، الصالح منهم والشرير ، فبدءوا يتذمّرون خفية بدون أن يجاهروا خوفاً من قوته الخفية التي لا يعلمون من سرها شيئاً .

كان الشيخ سيد يدخل السوق فيختطف ما يجده أمامه ثم يبعثره على الأرض . ويذهب الى الضياع فيدخل دساكرها ويمسك بالدجاج والاوز فيخنقها ثم يطرحها فى الطريق أمام السابلة غير هيّاب ولا وجل وكان يجرى خلف الاطفال فمن استطاع امساكه ينهال عليه ضرباً وعضاً بوحشية وجنون .

وكثيراً ما صفع الناس على وجوههم بلا سبب . وقد أمسك مرة بذقن الشيخ حمزة خطيب الجامع الوقور فجعل ينتف بعض شعراتها بشدة ثم ركله برجله الغليظة فى بطنه فوقع الرجل مغشياً عليه . كثير من هذه الأعمال قام بها الشيخ سيد فانكرها الناس عليه فى الخفاء . ولكنه مع ذلك لم يعدم وجود بعض المخلصين الذين كانوا يمدونه بما يشتهيه من طعام وكساء . أما بناته فقد قطعن صلاتهن به ولم يعدن يشاهدنه الا قليلا تجنباً لأذاه ومكروهه .

***

كان والدى مزمعاً الاقامة فى الضيعة هذه الدفعة شهراً من الزمان لأن المزروعات كانت فى احتياج الى مراقبته وعنايته . فزوّدت نفسى ببعض الروايات القصصية واجزاء ألف ليلة وليلة لاهو بمطالعتها . وأوصيت عم خضر البستانى ليذهب الى سوق « الجمعة » الذي يُقام كل اسبوع مرة ليشتري لي عنزة صغيرة أربيها مدّة إقامتى ثم أضمها الى قطيع الغنم الموجود بالضيعة عند رحيلى . وكنتُ أميل لصيد الاسماك فطلبت من صديقى البستانى نفسه أن يجهز لى معدّات الصيد فصدع للامر وجاءنى فى اليوم التالى بعصا طويلة من الغاب ربط فى طرفها حبل السنارة . ثم قدم لى كرة صغيرة من الطين أخبرنى أن بها عدداً من الدّيدان يكفى لصيد يومين متواليين . فسررت من ذلك سروراً عظيما وذهبت معه الى الترعة واخترنا مكاناً صالحاً للجلوس ، فاقتلع عم خضر حشائشه الشائكة ثم مهد القطعة وغطاها بالقش النظيف . فجلستُ أصطاد وهو بجوارى يراقب العوّامة على سطح الماء بدقة واهتمام ، وينصحنى بسحب عصا السنارة عند ما يتحقق من أن السمكة قد علقت بها . فاصطدت بهذه الوسيلة عدداً كبيراً من السمك أعطيت نصفه للبستانى وأخذت النصف الآخر للطاهى فجهزه طعاماً شهياً لكلبى « فارس » .

وقد أحضرتُ معي من القاهرة كرةً للقدم كنت أخرج بها الى « الجُرْن » حيث أعدَّ ناظر الزراعة قطعة لائقة للعب . وكان يجتمع بي للعب معي بعض الغلمان من الضيعة وبعض الفتيان من البلدان القريبة ، الذين لهم بعض الدراية بلعب الكرة لترددهم على مدرسة مجلس المديرية القريبة من البلدة .

في هذه القطعة الرحبة التي أعدها ناظر الزراعة للعبنا كنا نجتمع عصر كل يوم تقريباً لنمضي أكثر من ساعة في اللعب ، يشاركنا بعض الاحيان الناظر نفسه وبعض موظفي الضيعة . فكانت الكلفة ترتفع بين الجميع في وسط ذلك الميدان الديمقراطي الذي تتساوى فيه الدرجات .

وقد حضر مرة الشيخ حمزة خطيب الجامع وكان يريد أن يشاهدنا ونحن نلعب فدفعناه في الميدان ورجوناه أن يشاركنا قليلا . وكان يظهر من ملامح وجهه المشرقة أنه يرغب في ذلك ولكنه يخشى أن تناله ألسنة الناس بالانتقاد . فاندفع حينما رأى كبار موظفي الزراعة والبلدة يشاركوننا اللعب بكل بساطة وممازحة وأخذ الكرة بيده ثم قذفها بهمة بقدمه فلم ترتفع إلا بضع أمتار قليلة بينما ارتفع نعله الاحمر الكبير في الهواء ارتفاعا شاهقاً ، فصفق الناس وهللوا

وخرج الشيخ من فوره من الميدان بعد أن اتصل مركوبه ثانياً وهو يبتسم ابتسامة الخجل لما لحقه من الهزء والسخرية .

هكذا كنتُ أمضي الوقت بالضيعة اطالع القصص على المصطبة التي بجوار الساقية مستظلا بأشجار التوت العظيمة ، أو مع عنزتي الصغيرة في المحل الذي اخترته لها بجوار حديقة المنزل حيث اشاركها مرحها ولعبها واقدم لها طعامها وشرابها ، أو على ضفة الترعة التي أمام « الدوّار » اصطاد بجوار عم خضر البستاني ، أو في الجرن حينما تبدأ الشمس تميل ناحية المغيب العب كرة القدم مع من يحب اللعب بها من الفتيان والرجال ساكني الضيعة والبلدة .

***

وكنتُ في يوم ، لا أزال أتمثل حوادثه الآن أمام عيني كأنها وقعت بالأمس ، أنفخ الكرة بالمنفاخ المعد لها استعداداً لحفلة كنا قد اتفقنا على اقامتها وفيها يتبارى فريقان من اللاعبين ، فريق الضيعة وفريق البلد . وكنا قد أعددنا هدية ثمينة تقدم للفائز من الفريقين . وكان حولي جم غفير من الناس وجماعة اللاعبين على رأسهم عم خضر البستاني ، الكل يراقبوني في عملي

والسنتهم الثرثارة لا تهدأ لحظة عن الكلام ، تارة مازحين وطوراً جادين ، يتحدثون عن حفلة اليوم أحاديث مسهبة ليست الا أحاديث شقشقة ولغو .

ومر في هذه الآونة الشيخ سيد العبيط كالعاصفة الهوجاء ينظر الينا شزراً واختفى سريعا بين الاشجار والدور . فسرت رجفة فينا جميعا وصمتنا برهة قصيرة ثم تنهد عم خضر من أعماق قلبه وتكلم بصوت ضعيف كأنه يناجي نفسه ، ولكنه كان يوجه الكلام خاصة الى :

— مش عارف جرى ايه للراجل ده دلوقتي . يمكن يكون ركبه عفريت .

ولم يكد يختفي شبح الشيخ سيد عن أنظارنا حتى عاد الجم الى لغطه وعدت الى عملي كأن احتفال اليوم بفخامته وأهميته المنتظرة قد ملأ كل دقائق فكرنا فلم نعد نهتم الا به .

ولما اكتمل عدد اللاعبين في الجرن بدأنا اللعب ، وجمع غفير من الصغار والكبار ملتف حول الملعب يراقبنا باهتمام وسرور ولم يكد ينتهي الشوط الاول ويبتدىء الشوط الثاني حتي رأينا الشيخ سيد يجرى وهو حامل بين ذراعيه طفلا يبلغ من العمر العامين

يضربه ويعضه ويمزق بشرته بوحشية وقسوة متناهيتين ، والطفل يصرخ صراخا متواليا ، وبعض رجال الضيعة ونسائها واطفالها يجرون خلفه يصيحون به صياح المجانين . وكان أسرعهم للحاق به والد الطفل تتبعه زوجته مولولة باكية . فامسك الرجل بالشيخ سيد مسكة النمر المفترس والتحمت بين الرجلين معركة هائلة فاز فيها الاب بعد ان استنزف قوته ، فانتزع طفله من بين مخالبه ورده الى الام لتعتني به ثم هجم عليه من جديد وكان الشيخ سيد منطرحا على الارض فانهال عليه ضربا وركلا حتى خانته قوته فتركه راجعا الى بيته ، وهو يرغى ويزبد شاتما لاعنا . أما الشيخ سيد فلم يعبأ بما حصل كأن لم ينله أى أذى وقام حاملا زكيبته كالمعتاد ذاهبا الى حيث تقوده قدماه ولكنه كان يسير ببطء وتعب لما ناله من الاعياء الشديد أثر تلك المعركة الهائلة .

كان أبو الطفل يدعى حسن سلام من فلاحى الضيعة الاقوياء ، لحقه عدة مرات من أذى الشيخ سيد ما ولّد فى قلبه كرها دفينا له فقد أتى على دجاجه كله فبدده خنقا وتشريداً . ثم دخل منزله فى غيابه وساق أمامه عنزته وأولادها وجعل يقذف بها في الترعة واحدة بعد الاخرى حتي غرقت جميعها . ثم رأوه قد أوقد النار

في دار حسن سلام يريد حرقها . توالت هذه المصائب على حسن سلام وكان رجلا مؤمنا لا يترك فرضا ، حسن الاخلاق ، قليل النقائص ، فعز عليه أن يناله هذا الأذى الجسيم من شيخ اعتقد هو والجميع بولايته وإيمانه . ولكنه وجد نفسه مدفوعا بالرغم منه لخلع تلك الولاية واضمار الشر له . فلما اختطف الشيخ سيد طفله والحق به هذه القسوة الوحشية طار لبُّه فلم يعد يعلم مايفعله . وتجمّع أذى الرجل جميعه في ذهن الوالد فدفعه لان يقتص منه هذا القصاص العادل . فعل ذلك وهو لم يفكر في تلك اللحظة الا في الانتقام من خاطف ابنه الذي لم يفتر عن أذيته والحاق الضرر به . لم يفكر حسن سلام في شخصية الشيخ سيد الممتازة وما فيه من قوة خفية قادرة على التنكيل باعدائه . لم يفكر في مصرع الشركسي وفي الكرامات المتكررة التي فعلها الولى . أمّحى كل شيء من لوحة فكره في ذلك الوقت فلم ير الا القصاص والانتقام من الجاني .

وكانت هذه الحادثة الرّهيبة كافية لأن تبطل اللعب فأجلناه الى يوم آخر وبدأ الجمع ينتشر ، فتفرّق شيعا وفرقا ، أطفالا وصبيانا ، رجالا وكهولا ، كلهم يتحدثون عن المعركة . فالطفل يحدّث رفيقه بشاعة الرجل وكيف كان مكشرا عن أسنانه التي كانت تماثل أسنان

الثور ، والصبي يتحدث عن شهامة حسن سلام وقوته وكيف تغلب على الشيخ سيد فاوقعه على الارض بجسمه الهائل ، والرجل يتكلم عن الطفل الصغير وكيف كان يصرخ صراخ المتألم المستغيث وما نال جسمه من التمزيق تحت أسنان الشيخ سيد الغليظة ، والكهل يروى لرفقه بتؤدة وبساطة نتائج هذا الحادث متكهنا عما سيقع ، مستفيدا بتجاربه الماضية . وسرعان ماانتشرت في جو القرية نبوة رهيبة فاه بها بعض الشيوخ فتناولتها الالسنة الثرثارة وحملتها سريعا الى الجميع ، نبوة وفاة حسن سلام في القريب العاجل . اعتقد الناس جميعا ان حسنا لن يمضي الليلة حيا فلا تشرق شمس الغد عليه الا جثة هامدة مشوهة ، فترحم الجميع عليه سلفا وبدأوا يستعدون خفية بدون علمه على اقامة شعائر الجنازة والمأتم . وأرسلوا رسولا الى الشيخ حمزة خطيب الجامع وكان متغيبا عند أقاربه في احدى البلاد القريبة يطلبون منه الحضور هذه الليلة سريعا ليقرأ القرآن في مأتم حسن سلام . وزاد اللغط والكلام فتجسمت الاخبار الكاذبة المخرفة وانتشرت سريعا في جميع أرجاء الضيعة . وجاء الشيخ حمزة راكبا أتانا هزيلة استعارها من أقاربه ، مصفر الوجه من الاضطراب الذي لحقه عند سماعه الخبر ، ومن التعب الذي تحمله

في طريقه أثناء سير الدابة البليدة ، والمجهود الذي قام به في حملها على السير بسرعة . قابل شخصا ماراً في سبيله فاستوقفه وسأله وهو يلهث من التعب عن حسن سلام فاجاب الرجل بكل بساطة وهدوء :

ــ أبو سلام ياسيّدنا تعيش انت .

فزاد اكفهرار الشيخ وتابع سيره وهو صامت بحسرة وكمد الى أن دنا من مدخل الضيعة فقابل أحدهم فناداه وسأله عن حسن سلام فاجابه الرجل بصوت عادي :

ــ حسن سلام بيطالع في الروح ياسيّدنا .

وسار الشيخ حمزة في طريقه وهو على ظهر أتانه البليدة الهزيلة كأنه يسير بقدميه ولما اقترب من مباني الضيعة نفسها قابله صبي مراهق فسأله سؤاله المعتاد فاجابه الصبي :

ــ بيقولو ياسيّدنا انه حيموت بكره

فصرخ الشيخ مستفهما

ــ بأيهي لسّه مامتش

ــ لسّه مامتش ياسيّدنا

فتنهد الرجل تنهد الارتياح لانه كان من أصدقاء ومحبي حسن

سلام ، مرتبطا معه فوق ذلك برباط النسب . . وترجّل عن الاتان ثم تركها فى عهدة أحد (كلاّفى) الزراعة لينصب بها الى حظيرة المواشى ويبقيها فيها حتى الصباح . ثم سارع الخطا قاصدا دار حسن سلام ليتأكد بنفسه عن حالته . ولما اقترب من الدار التقى بالنجل الاكبر لحسن سلام البالغ من العمر السابعة فسأله بلهفة :

ـ فين أبوك ياواد

ـ فى الدّار بيشرب القهوة مع أبو حجازي وسيد أبو كبشة .

***

بعد ان انتصر حسن سلاّم على خصمه الشيخ سيد العبيط قفل راجعًا الى داره تسبقه زوجته . وكان من حسن حظهما ان الشيخ سيد لم يصب الطفل أصابات خطرة فعالجاه على قدر ما تسمح لهما معلوماتهما . ثم نام الطفل فى حجر أمه نوما عميقا وسكت الزّوجان عن الكلام وعن الحركة الا قليلا ، فلم يكن يُسمع فى هذه الحجرة الصغيرة سوى صوت الام الضعيف تغنّى غناء متقطعًا بسيطا لطفلها وهى تهزه هزّات خفيفة ببطء وهدو فيرتاح لها فى نومه وأحلامه . هذا خلاف صوت ضئيل خارج من حظيرة الماشية القائمة بجوار حجرة الزوجين ، حيث الجاموسة الصغيرة تتناول علفها وبجوارها

موسى الابن الاكبر لحسن سلام يكنس قاذوراتها ويمدّ لها مكانا صالحا للنوم .

كان حسن سلام في ذلك الوقت يفكر في كلّ ما تم ، يفكّر في كل شيء قديم وجديد ، في الشيخ سيد وكراماته وتغيّر حاله ، في الاذى المتكرر الذي ناله منه بلا سبب ، في موت الشركسي تلك الميتة البشعة ، فيما وقع لبعضهم من الضرر البالغ عندما كانوا يهزأون بالشيخ سيد في بعض الاحيان . كان يفكر حسن سلام في كل شيء حتى وصل الى حادثة اليوم فاكفهر وجهه واضطربت أعضاؤه وعجب من نفسه كيف تهوس هذا الهوس الغريب مع شيخ من أولياء الله . ثم بدأ يلوم نفسه ويوبخها ويطلب من الله الصّفح والغفران عما أتاه . تجاهل حسن سلام ضرر الشيخ سيد وأذاه وتقبل أن يعدّه عقابا من الله على عصيانه له في بعض الاوقات ، واجبا عليه احتماله في سبيل رضاه . وتجسمت امام نظره جريمته الهائلة كما تجسمت طهارة الشيخ سيد ونقاء سريرته ، خوفا على نفسه من انتقام سريع يحلّ به كما حل بالشركسي منذ سنين . واعتقد الرجل كما اعتقد الناس جميعاً انه لامحالة مائت الليلة ميتة شنيعة بشعة فوهنت قوته وجفّ ريقه وتصبب العرق البارد من جبينه وزادت

ضربات قلبه فاضطرب تنفسه ، واختلطت المشاهد في رأسه فكانت تمر فلا يستطيع ان يميزها بوضوح. فمن منظر من مناظر جهنم بأبالستها ولهيبها ومرزباتها الحديدية الثقيلة تنهال على رأسه فتهشمها ، الى منظر صراع الموت الذى سيصرعه فيه عزرائيل بقوته الهائلة ، الى بعض مناظر من مناظر حياته الماضية ، الى صور عديدة تمثل الشيخ سيد يعزم تعازيمه السحرية مسخراً قوته الخفية ليتم انتقامه الرهيب . وأخيراً رأى منظر جنازته وزوجته تصرخ مولولة خلف النعش حاملة ابنها الصغير . فضاق صدره وأحس باختناق شديد ثم صرخ مستنجداً :

— حوشوا ياناس . حوشوا الشياطين . . . المرزبة . . . عزرائيل حوشوا .

ففزع الطفل فى نومه وقامت زوجته مسرعة نحوه وهى ترتجف من عظم ما نالها من الخوف . وأتى ابنه الاكبر من حظيرة المواشى بحذر وخوف شديدين يستطلع الخبر الرهيب عن ابليس وعزرائيل . وهدأ الرجل قليلا بعد ان استأنس بصوت زوجته ووجه ابنه . ثم طلب اشعال المصباح فتقدمت زوجته وأشعلته فانبعث النور من فتيلة الزيت وأضاء الغرفة بضوء أصفر ضئيل اطمأن له قلب الرجل بعض الاطمئنان . ثم خرجت الزوجة الى بعض أقاربها فى القرية تنبئهم

ينبأ زوجها واستقدمت معها بعض الشيوخ المتقاعدين فجاءوا على مهل يتقدمهم الرجال والفتيان مدفوعين بحب الاستطلاع ليروا ماحل برفيقهم حسن سلام جزاء ما اقترفه اليوم من جريمة هائلة ضد شيخ من أولياء الله . ولكنهم لم يدخلوا رهبة وخوفا . بل ازدحموا حول الباب يتطاولون باعناقهم ويمدون النظر فى الداخل . واقترب الشيوخ فاوسعوا لهم مكان الدخول . وتقدم أكبرهم سنا فبادره حسن سلام قائلا بصوت تخنقه العبرات :

— حموت ياعم مبارك . . . حموت . . . شفت بعينى ابليس وعزرائيل جايين يقبضوا روحى .

فأجاب الرجل بيأس واشفاق :

— لسه يابنى لسه . مش دلوقتي

فصرخ حسن سلّام صياح المفرط :

— يا يعنى صحيح حموت ؟

فأجاب عم مبارك بصوت مستسلم ضعيف :

— وحنعمل ايه يابنى . حد يقدر يرد حكم الله

فشهق حسن سلام بالبكاء وبكت زوجته معه وولول الصبي قائلا :

— آه يابا . حتفوتنى لمين يابا .

فمسح الجميع الدموع من أعينهم وتنهدوا بحسرة وحزن واعترى حسن سلام يأس قاتل فالتهبت رأسه بالنيران ودارت الدنيا أمامه وتضاءلت الصور والأشباح فرآها تتلاشى رويداً يغمرها الظلام . واحتبست أنفاسه فانطرح على الارض كالمغمى عليه وظنوه قد فارق الحياة فضج الجميع وصرخت الزوجة صراخ المأتم . وتمتم الشيوخ يرددون قول « انا لله وانا اليه راجعون »

في ذلك الوقت العصيب دخل أبو حجازى وخلفه سيد أبو كبشة من أقارب حسن سلام فبادر أبو حجازي الجميع قائلا :

— جرى ايه يا ولاد جرى ايه

فتكلم عم مبارك العجوز قائلا بصوت واهن خافت :

— حسن سلام تعيش انت .

فدنا أبو حجازى من حسن سلام ، وكان رجلا يمتاز عن رفاقه بذكائه ورجاحة عقله ورزانته وقال وهو يقلب الرجل اليين بيديه :

— ايه الكلام ده . دا الراجل حي زيي وزيك . بس هو اللى مسورق .

وصرخ قائلا :

— هات ياواد شوية مية .

فناوله الصبي القلة . وانقطع صراخ الزوجة فمسحت الدموع من عينيها . وسكت الجميع يراقبون مايعمله أبو حجازي لينتشل حسن سلام من مخالب الموت . ومد أبو حجازى يده بالقلة فجعل يرش ماءها بقوة على رأس الرجل ووجهه بينما كان رفيقه أبو كبشة يدعك يديه بشدة فلم تمض بضع دقائق حتى أفاق حسن سلام من اغمائه وفتح عينيه وقال متنهداً :

— أنا فين ياجماعة ؟

وزغردت زوجته زغردة الفرح وضج الناس مستبشرين فرحين . فاجابه أبو حجازى قائلا :

— أنت في دارك يابوسلاّم . شد حيلك ياأخي .

فتنهد الرجل من اعماق قلبه وقال بحسرة :

— موت ياأبوحجازى موت شفت بعيني عزائيل وأبليس .

فطيّب أبوحجازى خاطره بكلام لطيف رزين ارتاح له الرجل ارتياحا عظيما . ثم قام أبوحجازى وطلب من الحاضرين أن ينصرفوا مخبرا اياهم بأن حسن سلام في أحسن صحة وعافية . فبدأ الجمع يتفرّق وخرج الشيوخ بمكازاتهم الطويلة يتهامسون قائلين :

ـ ماتخافشي حيفوّت الليلة .

ولما خرج الجميع قفل أبو حجازى باب الدّار واقترب من حسن سلام وأخذ يحادثه حديثا جميلا أفعم قلبه بالاطمئنان . فخُيِّل اليه أنه أصبح شخصا جديدا له روح جديدة تشعر بالفرح والسرور ، وعينان جديدتان تريان العالم في بهجة وحبور ، فجعل يتكلم بوثوق من نفسه وقوته محدّثاً أبا حجازى وأبا كبشة عن حادثة اليوم وكيف اختطف الشيخ سيد طفله الرضيع بوحشية وقسوة وكيف كان العراك شديدا متصلا . وبعد أن وفّى الحادثة حقها من الشرح والتعليق قال مستفهما متعجبا :

ـ ولكن بس الراجل ده ماله ومالى . انا عملتله حاجة . هوّ جرى له ايه ؟!

فأجاب أبو حجازى بصوت خافت هادىء :

ـ الرّاجل يابو سلام ركبه عفريت . ربنا يبعده عنا وعنك

ـ طيب ماهو يمكن يئذينى ؟

فصرخ أبو حجازى قائلا :

ـ يئذيك ازاى . وفين ربنا ياراجل . أمّا يبقى ربنا موجود وشايف كل حاجه ويخلّصه واحد را كبه عفريت يئذى مؤمن زيّك .

فتنهد حسن سلام تنهد الارتياح وتيقن بأنه نجا من الموت ومن عذاب عزرائيل ومن المرزّات الحديدية الضخمة التي رآها في احلام اليقظة منذ لحظة تهشم رأسه وتدق عنقه فابتسم وضحك وطلب من زوجته أن تحضر لهم القهوة ليرطب حلقه الجاف وينبه مشاعره التعبة . ثم أرسل ابنه ليخبر عم مبارك الكهل بأن الخطر قد زال عنه وانه بخير وعافية .

***

وبعد قليل دقّ الباب ودخل الشيخ حمزة الخطيب فأسرع نحو حسن سلام وعانقه بلهفة وهو يقول :

— الحمد لله على سلامتك يابني . وانت طيب بخير

— الحمد لله يابويا

— دنا سمعت عنك كلام وحش أوى

— كنت حموت يابويا حمزة . كنت خلاص بطالع في الرّوح .

وشاركهم الشيخ حمزة في شرب القهوة كما شاركهم فيما بعد في تناول العشاء المكون من أرغفة الذرة الكبيرة الهشة والجبن الابيض المملح .

***

وأشرقت الشمس فى اليوم التالى فقام حسن سلام من نومه نشيطا بعد أن امضى ليلة هادئة مشبعة بالاحلام الجميلة . وحمل فأسه على ظهره كالمعتاد وخرج من داره قاصدا الغيط ليقوم بعمله هنالك . ومر أمام الدوار فسلم على الناس بابتهاج وسرور والناس ترد له السلام بريبة وعجب متسائلين كيف لم يمت . وكان الشيخ مبارك الكهل فى المصلى الذى بجوار الترعة فى رفقة من أصحابه . فلما رآه حسن سلام قصده وسلم عليه مقبلا يده فارتاع الكهل ورفاقه ارتياعا شديدا لانهم كانوا فى تلك اللحظة يتحدثون عنه منتظرين من يجيئهم بخبر نعيه . وتكلم بلهجة الخوف وهو يسحب يده من يد حسن سلام:

ــ بسم الله الرحمن الرحيم . انت لسه ما مُتّش ياحسن والا ده عفريتك . . . ! ؟

فابتسم حسن سلام وأكد للشيخ الكهل ورفاقه أنه لم يمت ولن يموت الا باذن الله . ثم أخذ يباسط الجماعة برهة من الزمن وقام الى الغيط وهو حامل فأسه على ظهره .

وسرعان ما انتشر خبر نجاة حسن سلام كما انتشر من قبل خبر وفاة الشركسى . وتناقلت الالسن خبر هذه النجاة مضافا اليها ماحل بالشيخ سيف من خضوعه للشيطان حتى أصبح الآن من خدامه

المطيعين يأتمر بأمره ونهيه بعد أن كان من أولياء الله يرعى الخير ويعاقب الاشرار. انتشر هذا الخبر بسرعة فابتهج له الناس ابتهاجا عظيما. وكان أشدهم فرحا من نالهم أذى الشيخ سيد وكانوا يخشون سطوته وانتقامه. وكان اليوم كأنه يوم عيد لسكان هذه القرية فقد عظم شر الرجل واستبداده وأذاه حتى ضج الناس بالشكوى ولكن لانفسهم ، وأصبحوا في هم وكمد يخافون على مزروعاتهم وأموالهم وتجارتهم وحيواناتهم ودواجنهم حتى على أطفالهم من أن ينالها الضرر من يد ذلك العاتى المستبد . وخرج الناس الى الغيط الذى يشتغل فيه حسن سلام يسألونه بأنفسهم فكان يجيبهم ببشاشة راويا لهم كيف جازى الشريرَ على فعله وكيف رد كيده فى نحره .

وقام الشيخ حمزة خطيب الجامع واعتلى مصطبة الدوار بعد صلاة الظهر وكان قد أمَّ الضيعةَ فى هذا اليوم عددٌ كبير من الناس ليشاهدوا حسن سلام بعيونهم ويسألوه عن حقيقة الحال بانفسهم . فالتفوا حول الخطيب ليسمعوا كلامه ، وكان الرجل مازال يذكر كيف أهانه الشيخ سيد بنتف لحيته وركله بشدة فى بطنه . وكأنه قد أحس بألم الاهانة والضرب في تلك اللحظة ، فاحمرت عيناه غيظا ، وارتجفت لحيته بشعيراتها المبعثرة وأمسك

شدة عكازه في يده اليمنى ثم جعل يفيض ببيانه المعهود شارحا للجميع كيف انقلب الشيخ سيد الآن من ولي من أولياء الرحمن الى شيطان يخدم ابليس وينشر مبادئه على الارض . وأخذ يبرهن لهم بمختلف الادلة والبراهين على صدق كلامه وصحة دعواه ثم حض على مطاردته حتى يرتد ابليس خاسرا عما نواه ، وليعلم حق العلم ان سكان هذه الضيعة الطاهرة وما يجاورها من القرى والبلاد ليسوا الا . الناس الصالحين الاتقياء يعبدون الله وحده لاشريك له ويلعنون ابليس وشركاءه وتابعيه . ثم تحمس في كلامه فعلا صوته وتشنجت ملامحه ، وبصق بصقة شديدة في ناحية خيالية قائلا انها موجهة الى ابليس ، فعليه لعنة الله . فبصق الناس جميعهم في هذه الناحية وهم يلعنون ابليس ويستعيذون بالله من أذاه .

***

اختفى الشيخ سيد عن الانظار بضعة أيام اذ حجزته أمه خوفا عليه من أذى الناس بعد ان علمت بحادثته الاخيرة مع حسن سلام وما وصل الى سمعها من أحاديث الرائحين والغادين بانه أصبح الآن خادما للشيطان يجب على كل انسان ان يطارده ويلحق به الاذى . ولكن الشيخ سيد ضاق ذرعاً بحبسه وهو الذى تعود الانطلاق الى حيث يريد يرتاد أماكن الكرماء علاً بطنه بلذيذ المآكل .

فعالج الباب حتى فتحه . وخرج يمشي مشيته المعتادة. وذهب يبحث عن المأكل الشهي والحفاوة الكبيرة . وانطلق في سوق البلدة المجاورة وبدأ يدخل الحوانيت ليقوم فيها باعماله الجنونية فوجد أمامه وجوها متجهمة . ومد يده فسمع زجراً شديداً لم يتعوده . وكان لا يكاد يدخل محلا حتى يخرج منه عنوة مطروداً . ولكنه لم يفهم شيئاً ولم يأبه لشيء . وصمم على خطف شيء من حانوت الجزار القريب فأمسك بخروف مسلوخ معلق على الباب وتعلق به فهوى بالخروف على الارض . وخرج صاحب الحانوت يلعن ويسب ثم أتى بعصا غليظة وهوى بها على الشيخ سيد حتى أثخنه فخاف الرجل بعد ان شعر بالم الضرب ، وقفل راجعا الى بيته وأخذ يبكي في حجر امه الضريرة يشتكي اليها مما فعلوه به .

وتجرأ الناس على الشيخ سيد جرأة عظيمة فطاردوه وتعدوا عليه بالضرب وهو لا يعي ولا يفهم شيئاً مما يفعلونه . فكان يخرج كعادته ثم يرجع سريعا الى داره مُطارداً من كل شخص ، مطروداً من كل مكان ، لا يملك شيئاً يسد به رمقه .

وعادت دورة الحياة على هذه العائلة التي لم تتكون اليوم الا من فردين ، فانزلت بهما نازلة الفقر والفاقة حتى كاد فرداها يموتان

جوعا لولا ما كانت تجيء به الأم الضريرة من قوت ضئيل لا يكفي لإطعام طفل صغير . فهزلت قوة الشيخ سيد وزادت نوباته الجنونية فكان يصرخ صرخات عالية تارة متوعدا وطورا شاكيا متظلما ، ثم يقرع رأسه في الحائط قرعا متواصلا حتى يدميه وخلفه أمه تتوسل اليه ان يرحم نفسه .

ومضى يومان على الشيخ سيد وأمه لم يذوقا فيهما غير الماء . وقد ارتمت الأم من ضعفها على الارض بجوار الباب تطلب المعونة وهي مادة يدها الى من لا يسمعها ولا يراها . واشتد الجوع بالشيخ سيد فكان يقضم الطوب ويزدرده كأنه العيش الجاف . ولكنه لم يصبر على ذلك فخرج من داره وكان الوقت ظهرا واتجه ناحية الضيعة فلم يصادفه أحد في الطريق لأن الجميع كانوا في الغيط أو في الدوّار » يتناولون الغداء أو نائمون . فدخل القرية بدون ان يشعر به أحده لا يدري أين يذهب والى أي غاية يقصد ، يسير كالحيوان مدفوعاً بغريزته يبحث بلا وعي عن شيء يسد به رمقه . وكانت الدّور مقفلة الأبواب الا داراً لمح بابها مفتوحاً قليلا وامرأة تتأهب للخروج منه حاملة على رأسها شيئاً مغطى وبجوارها ابنها الصغير . فاتجه الشيخ سيد نحو هذه الدار . ورأته المرأة وكانت وحيدة في

تلك الناحية ، والشمس على أشدها ترسل ناراً حامية على الرؤوس وضوءاً قاتلا للعيون ، والسكون سائد منتشر انتشاره في حلك الليل . فارتاعت المرأة ارتياعاً شديداً وأيقنت أن الشيخ سيد ليس إلا ابليس نفسه أتى ليُلْحق الاذى بها وبابنها . فأُرتج عليها في بادىء الامر فلم تستطع الصياح ، فكان صوتها يخرج مختلجاً ضعيفاً لا تكاد تسمعه هي بنفسها . وأرادت أن تتحرك ــ الى الامام خارجة ، أو الى الخلف مرتدة الى دارها لتقفل الباب عليها دون الرجل ــ فوجدت قدميها لا يكادان يحملانها فظنت أن هذا من فعل إبليس وكادت تستسلم لولا أن سمعت نباح كلب من كلاب الجيران من أحد الاسطح المجاورة فتشجعت وخرج صوتها من حلقها بعد جهد جهيد مستغيثاً منادياً . وبدأت تتحرك فسارت تحاول الجري بكل ما تستطيع من قوة تجر طفلها خلفها . وانطلق الشيخ سيد يعدو وراءها كما يعدو الفيل الجائع نحو فريسته . ولحقها وهجم عليها ثم رماها أرضاً فانتثر الطعام الذى كانت تحمله لزوجها . فجعل يلتقطه بيد ويضرب المرأة بالاخرى وهو يلتهمه بنهم ووحشية ، يزمجر زمجرة الوحوش المفترسة . ولم ينقطع صياح المرأة بل تزايد مصحوباً ببكاء الطفل وعويله ونباح الكلاب التى هبت كلها دفعة واحدة

مشاركة رفيقها السابق في نباحه الاول بدون أن تعلم لمن تنبح ولأي شيء تنبح . وفتحت أبواب الدور وخرج سكانها وكان معظمهم من الصبيان والاطفال والنساء لان الرجال كانوا في عملهم في الغيط أو في الدوّار فبدأوا يصيحون صياحا مزعجاً . وجرى الصبيان الى خارج القرية ليستدعوا الرجال . واستطاعت المرأة أن تخلّص نفسها وطفلها من الشيخ سيد ورجعت هاربة الى حيث الجمع يصيح . أما الرجل فقد جلس وهو يلهث من التعب يلتهم ماتصل اليه يده .

وكان في القرية أربعة أشخاص منهم الشيخ حمزة الخطيب ، كانوا نياماً فاستيقظوا على صياح النسوة والاطفال ونباح الكلاب فهبوا هبة واحدة وخرجوا يستوضحون الامر فرأوا الشيخ سيد جالسا يلهث وهو يأكل الطعام ملوثا بالتراب . وسألوا ماالخبر فعلموا أن الرجل هاجم المرأة بينما كانت على أهبة الخروج من دارها فأراد اغتيالها هي وطفلها لأغراض خفية . فحنق الرجال واشتد سخطهم وتكلم الشيخ حمزة فقال ان الرجل كان بلا ريب يريد سلب المرأة طفلها ليأكله. وجاء في هذه اللحظة بعض الفلاحين مسرعين نحو الجمع المتألب وكانوا قد سمعوا بحكاية الشيخ سيد وكيف هاجم المرأة وطفلها . والتفوا حول الشيخ حمزة يسألونه فأخبرهم بجلية

الأمر وكيف كان الرجل يريد اغتيال المرأة وافتراس طفلها فارتاعوا لذلك ارتياعا عظيما وقرروا عقابه والانتقام منه. وحاصروه في مكانه وهم يصيحون به يسبونه ويشتمونه. وتجرأ أحدهم فركله في ظهره. وجاء آخر فصفعه على وجهه. وهجم آخرون فجعلوا يضربونه ويمزقون ثيابه. وكان الشيخ سيد ينظر اليهم نظراً وحشيا بحيرة واندهاش يتوعدهم تارة ويتوسل اليهم أخرى ليتركوه يأكل طعامه الملوث بالطين والاقذار براحة وسكون. وأخيراً عيل صبره حينما وجدهم قد تألبوا حوله وهم لا ينفكون عن أذيته فزجر فيهم زجرة جعلتهم يرتدون قليلا. ولكنهم عادوا يشاكسونه ضرباً وصفعا وركلاً فقامت قيامته وتهيج جنونه فأمسك بمن استطاع امساكه، وكان صبياً يناهز السابعة، فقذف به بعيداً بقوة استمدها من ضعفه وجوعه. فصاح الجمع صياح المجانين ووحدوا صفوفهم ضده وكانوا قد أكلوا تسليح أنفسهم بالهراوات الغليظة. وبدأوا الهجوم فحاطوه وطاحوا به دفعة واحدة يضربونه ضرباً وحشياً. كانوا في عملهم هذا لا يقلون جنوناً عنه هو نفسه، فقد أضاعوا شخصيتهم العاقلة في تلك الحماسة التي كان يزكي اوارها الشيخ حمزة بكلامه المهيج ضد الشيخ سيد رسول الشيطان الرجيم.

فكان لكلامه في نفوسهم تأثير الطبل والنفير في نفوس الجنود وهم يحاربون في حومة الوغى . وهل الجندي في ساحة الحرب الا وحش كاسر فاقد شخصيته الآدمية العاقلة المهذبة ، مجرد من كل رحمة ونبل يرى ويفعل بغريزته الحيوانية المتعطشة الى حب الدماء والانتقام الأعمى .

لقد كان جماعة الفلاحين وهم في نضالهم هذا أشبه بالجنود في ساحة الحرب ، قد فقدوا شخصياتهم الآدمية ونزلوا الى الدرجة الحيوانية يدفعهم ذلك الاعتقاد الديني المتغلغل في قلوبهم بأنهم انما يحاربون من أجل الله وفي سبيله ليقضوا على الشيطان في لباسه الآدمي . ولكنهم جهلوا من يحاربون . لقد كان أمامهم رجل أبله أنهك الجوع قواه ، فرد أعزل لا يدفعه الى مغالبتهم غير جنون أنزله عليه القضاء ، ولم يكن له يد فيه أو مستطيع رده . ولكن كيف تعقل الجماعة ، وهي تعمل معا عملا واحداً ، مشتركة الشعور والاحساس .

ودام النضال نصف ساعة انهزم في نهايتها الشيخ سيد انهزاما فاصلا . فأمسك الفلاحون عن الضرب ووقفوا يمعنون النظر في فريستهم وهم يجففون عرقهم السائل على وجوههم بأكمام جلاليبهم الزرقاء .

ثم دنا أحدهم من الشيخ سعيد ــ وكان ملقى على الارض جثة هامدة عاري الجسد لا يستره الا مجموعة خرق بالية قذرة ملطخة بالاقذار والطين والدم ، منثوراً عليها بضع قطع صغيرة من لحم الرجل الممزّق ــ وحرّكه بهراوته فلم يتحرّك فالتفت الى الجماعة وأخبرهم بان الرجل قد مات . فهمهموا في ما بينهم كأنهم لم ينتظروا مثل هذه النتيجة بهذه السرعة . وقفوا واجمين شاعرين بأنهم تسرعوا في عملهم ، وكانوا قد بدأوا يعودون الى حالتهم الطبيعية . ولكنهم لم يشعروا الا بخوف قليل لعلمهم ان الجرم ــ اذا كان ثمة جرم ــ موزّع عليهم على السواء . وخرج الشيخ حمزة الخطيب من بين الصفوف وتكلم بصوت جهوري قائلا :

ــ لقد مات الشيطان أيها الناس فالى جهنم وبئس المصير .

فكان لكلامه تأثير كبير عليهم ارجع الثقة التامة الى نفوسهم والراحة والاطمئنان الى ضمائرهم . فأمّنوا على كلامه . وبعد فترة صغيرة قضوها في التشاور قرّ قرارهم على دفنه بالقرب من الجرْن . وهمت جماعة منهم ، آنسوا من نفوسهم الجرأة والقوة ، فدنوا من الجثة وكانت خليطا من دم وعظم ولحم وخرق بالية يكاد الناظر اليها لا يعرفها أهي جثة آدمي أم حيوان ، وبدأوا يجرونها كما يجرون

جثة الثور الميت ، والاطفال خلفهم وأمامهم يرقصون ويهللون ، صائحين فرحين ، حتى دنوا من الجُرْن حيث الموضع المختار . فتقدم بعض الفلاحين الاخصائيين بأعمال الحفر فحفروا حفرة واسعة بفؤوسهم الصلبة الثقيلة . وكان العرق يرشح من أجسامهم ويقطر من وجوههم فيبلل أرض المقبرة التي أعدوها لمدوهم . ولما أتموا عملهم جاؤا بالجثة فألقوها دفعة واحدة في الحفرة فاصطدمت بقاعها وسمعوا لها دوياً غليظاً مبهماً . ثم هالوا التراب والاحجار عليها . وكانوا كلما وجدوا الاكوام علت دكوها وساووها بأرجلهم ورؤوس فؤوسهم حتى امتلأت الحفرة وساوى سطحها سطح الارض . وتفرّق الجميع قافلين الى دورهم وهم يسبون الشيطان الرجيم .

***

هكذا مات الشيخ سيد ميتة الكلاب الكَلِبَة بهراوات الفلاحين ودُفن مصحوبا باللعنات .

لم يجْنِ الشيخ سيد على أحد بل جنى عليه القدر ، فقاده من حياته العائلية الاولى حياة الرجل العامل النشط ، المحترم الكلمة ، الى حياة الاولياء المتوهين يعيش كما تعيش الحيوانات المؤلهة في العصور الاولى ، مكرّماً محبوبا ناعم البال بعيش رغد ومأكل هنيء .

ولكنه لم يكد يتبوأ هذا المركز السامي حتى خطفه القدر فألقاه في هاوية الأبالسة فأضحى شيطاناً مؤذيا رهبه الناس وتجنبوه فترة من الزمن ، ثم تجرأوا عليه فاحتقروه وطاردوه ، وأخيراً افترسوه كما يفترس الحيوان الضار .

مات المسكين شاكياً ظلم القدر ، ميتة شنيعة لا يرضاها الانسان العادل لحيوانه ، فكيف برفيقه . وطوت الأيام والسنون في بطونها تاريخ الشيخ سيد وحادثة موته فلم يعد يلهج بذكرها أحد .

وسافرتُ الى الضيعة بعد هذه الحادثة ببضع سنين وجلست على المصطبة التي بجوار الساقية اطالع الجرائد وانظر الى الفضاء اللامتناهي نظرة الاعجاب . وكانت الساقية يديرها الثور كالمعتاد وغلام صغير جالس على دولابها يراقب حركة السير . وكان خرير الماء الممزوج بأنين الساقية ينتشر في جو المكان فيكسبه جمالا سحرياً . وبالقرب من المصطبة جلس عم خضر البستاني ينظر الى مغزله بعينيه الهادئتين النقيتين وقد تغلب بياض الكهولة في شعر لحيته ورأسه على سواد الرجولة فغدا مُهاب المحيا عليه طابع الشيوخ الطاهرين والاولياء الصالحين . لم يكن عم خضر في هذا الوقت يشغل وظيفته القديمة بل كان محالا على المعاش . ولكنه بالرغم

من ذلك كان يأتي كل يوم الى الحديقة يراقب أعمال البستاني الجديد ويرشده الى ما يجب عمله

وانظرت الى عم خضر وقلت له بابتسام :

— إيه أخبارك عن الشيخ سيد صاحبك القديم ؟

فتكلم بهدو وبطء ولم يرفع عينيه عن مغزله ، قائلا :

— ما بآش من ريحته غير شجرة الجميز

— شجرة الجميز ! ؟

فقابل عجبي بعجب أشد منه ونظر الي وقال :

— أيوه « جميزة » ابليس . انت مش عارفها ؟

فأخبرته بجهلي خبر تلك الشجرة وطلبت منه أن يشرح لى قصتها . فقال لى باختصار ان شجرة من الجميز نبتت من ضريح الشيخ سيد ونمت مع الزمن فأضحت اليوم شجرة فتية يستطيع الانسان أن يتفيأ ظلها ويأكل من ثمارها ، يزورها الناس نساء ورجالا اذا اشتد بهم الكرب أو نزلت بهم نازلة من نوازل الدنيا ليرجموها ، فكأنهم يرجمون ابليس ، ويتضرعون الى الله أن يحميهم من شره .

وقمت معه لزيارة «جميزة ابليس» كما يسمونها فألفيتها قائمة بمفردها على حدود الجرن مخضرة الأوراق محملة الثمار ولكنها جريحة الساق مشتتة الأغصان قليلا لما يصيبها من الرجم . وحولها اكوام

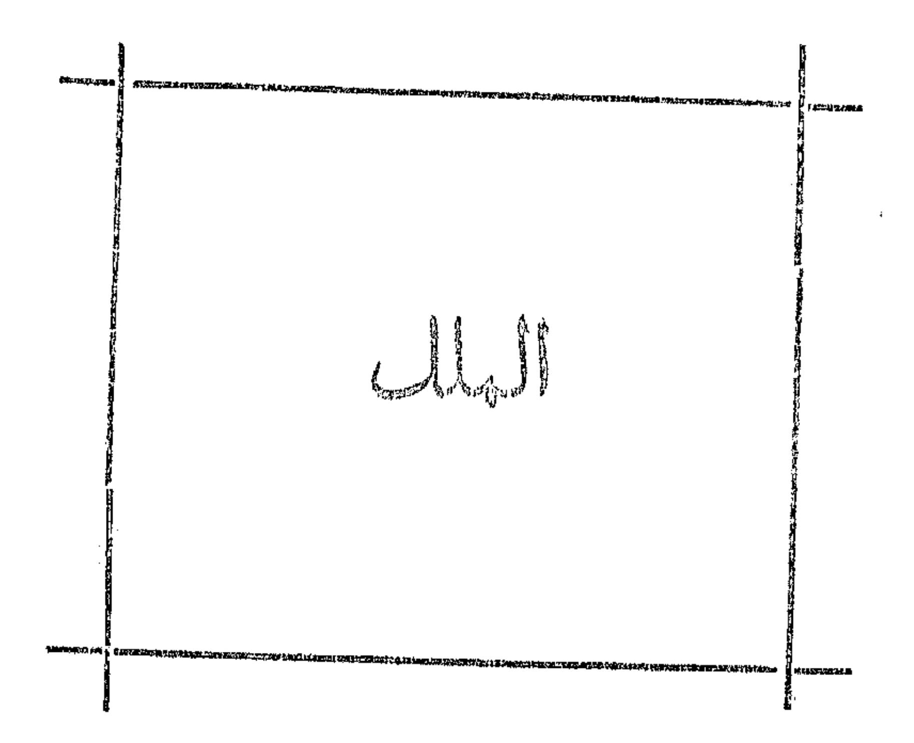
منثورة من حصا وقطع من الأحجار الصغيرة هي ما يستعمله الفلاّحون في رجم ابليس لينجّيهم الله من مصائبهم . وبالقرب منها قطعة أرض في داخل الجرن الرّملي الأجدب يزرعها الفلاّحون خضراً وبقولا لأنهم وجدوها صالحة للزرع تجود عليهم بمحصول وافر كل فصل.

وبالرّغم من كون الشجرة حاملة اسم ابليس ونامية على ضريح شيطان من أتباعه فليست هي بالشجرة المخيفة عند الفلاّحين صغارهم وكبارهم . فظلالها مبسوطة للنائمين والمتعبين ، وثمارها نهب مقسم بين الجميع .

***

لقد مات الشيخ سيد وعفا أثره ولكن الناس لم يدعوه ينام حتى في نومه الأخير نوما هادئا بعيدا عن سخافات الدنيا الباطلة بل جعلوا ضريحه مرجما للابالسه وشجرته علماً من أعلام الشياطين ، غير شاكرين له صنيعه فيهم بعد مماته حيث وهب لهم نفسه فأكلوا ثمار الجميز اللذيذ والخضر المختلفة ، الوافرة المحصول ، التي لم تكن تجود في تلك القطعة الجرداء لولا وجود الشيخ سيد في أرضها .

وهكذا تعمل دائما الأثرة والأنانية الانسانية بغريزتها ، فتستفيد من الشخص حيّا الى أقصى درجة تريدها ، ثم تفترسه افتراس الوحوش ، ومن ثمّ تقيم الولائم حول ضريحه تأكل من عظمه ولحمه وجلده بقدر ما تستطيع ثم تلعنه لعنات الأبالسه والشياطين .


الهلال

الهلاك

سامى افندى شاب في الثامنة عشرة من عمره من اسرة نبيلة كانت الثروة تغمرها فيما مضى ، أما اليوم فهى الى الفقر أقرب منها الى اليسر . طالب في السنة الثالثة الثانوية بالمدرسة الخديوية ، حسن الملامح اسمر الوجه يعتني بملابسه رغم فقره ، تلوح على محيّاه أمارات الذكاء . يمنحه والده مرتبا قدره مائة قرش في الشهر يصرفه جله أن لم يكن كله في القهوة القريبة من المدرسة حيث يمضى فيها فسحة الظهر مع رفاقه يتحدث معهم حديث الشباب الجميل .

كان سامى يعيش حتى سن السادسة عشرة عيشة الشاب الطاهر الساذج الذى لم يطأ بعد عتبة الحياة النسائية . ولكنه ما كاد يتخطى أول درجة من درجات السابعة عشرة حتى صادفته فى طريقه من حيث لا يشعر امرأة تبلغ الخامسة والاربعين فجذبته الى حظيرتها وكشفت له عن تلك الحياة التى لم يكن بعد قد تذوق منها شيئا ، فأقبل عليها يدفعه ذلك الشباب الحار بشعوره وتهوره . وبدأ منذ ذلك الحين يأخذ عنها — وهو الجاهل المبتدىء — أول درس من دروس الشباب بل أول علم من علوم الكون المملوء بالخطايا والآثام .

كان سامي يذهب عصر كل خميس الى السينما مع رفقة من أصحابه. وكان هذا اليوم هو اليوم الوحيد الذي يسمح له فيه والده أن يتغيب عن المنزل الى الساعة التاسعة مساء . فلما تعرّف برفيقته ذات «الخمسة والاربعين» ضحى صحبة الرفاق في السينما واستعاض عنها بصحبة المرأة يقضي معها اجازة الخميس من كل اسبوع. وقد اختلق في بادىء الامر الاعذار الواهية لاصدقائه عند ما تغيب عن صحبتهم ولكنهم فطنوا لأمره أخيرا وقابلوا هذه الاعتذارات بشيء من الابتسام الذي يخفي تحتـه معاني كثيرة . ولـكن لم يدم الحال على ذلك فقد فاتحهم سامي بحقيقة أمره وقصّ عليهم جلية الخبر فقابلوه بتشوق وسرور وجعلوا يطرحون عليه مختلف الاسئلة وهو يجيب عليها اجابات مشوقة جميلة ذات أوصاف جذابة يطربون لها ويقهقهون . وكيف لا يطرب شـباب السادسـة والسابعة عشرة بحوادث الحب والنساء ـ تلك الصور المسـتترة تحت قناع الشباب حيث تمثل أحساساته ومشاعره الثائرة .

***

كانت الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر يوم من أيام الخميس عند ما ترك سامي دار والده . لقد عاد من المدرسة في الساعة الواحدة

فتناول طعام الغداء مع والده ووالدته واخته ثم قصد حجرته حيث بدّل ملابسه المدرسية بملابس نظيفة أعدها لهذا اليوم . وقد مكث أمام المرآة ساعة من الزمن وهو يصلح هندامه ويسرّح شعره ويعطر مناديله وملابسه فلما وجد نفسه أهلا لمقابلة الحبيبة ترك حجرته وذهب لمقابلة والده مستأذناً اياه للخروج فلم يجده ولكنه وجد والدته جالسة تخيط بعض الثياب فرفعت بصرها اليه وقالت له بابتسام :

ـ أتريد أن تخرج ياسامى ككل خميس لترى رفاقك وتذهب الى السينما .

ـ أجل يا اماه

فابتسمت ثانيا وأحدقت فيه النظر تفحصه ثم قالت مداعبة :

ـ من يراك هكذا ياسامى يخال انك ذاهب لمقابلة العروسة . انت كثير الزينة . جميل الرائحة .

فظهر على الفتى بعض الارتباك ولكنه استطاع أن يغير مجرى الحديث فقال :

ـ سيعرضون الليلة روايه عن توت عنخ آمون . ولذلك سيكون سروري بها عظيما

***

وخرج الفتى من داره فسار في الشارع الموصل للكهرباء وهو يناجي نفسه قائلا :

— ليست رواية توت عنخ آمون التي سأراها هذا المساء بل هي رواية كل خميس ، رواية المرأة التي تهيم بي حباً وتجن بي عشقاً

ثم تنهد وقال لنفسه مناجياً اياها :

— منذ سنة وأنا أسيرٌ لهذه المرأة لا أستطيع الفكاك منها . هي أول امرأة عرفت منها سر الشباب وأحلامه وسأكون لآخر حياتي معها لا أعرف ذلك السر من غيرها . أف . لم أعد استطيب هذه الحياة ولا تلك الاسرار الغرامية . لا أدرى ما الذي يربطني بها ولماذا أنا مضطر للذهاب اليها .

ثم تاه في بيداء خياله فحملته الذكرى على أجنحتها الخفيفة السريعة الى الماضي القريب حيث تعرّف بهذه المرأة . وجعلت الصوَر تظهر في مخيلته ثم تختفي وهو تارة يبتسم لها وطوراً يهزأ منها وأخرى يقطّب لها . وركب الكهرباء وهو صامت ينظر بعينين تائهتين فيما يحيطه من جوامد وآدميين غير آبه بهم لانه كان ينظر بمخيلته الى صور الماضي التي كانت ترتسم في لوحة دماغه .

ما ألذّها من مقابلة تلك التي رآها فيها لأول مرة . كان يوم من أيام الخميس ، وكان ذاهباً لمقابلة رفاقه في احدى القهاوي القريبة من السينما حيث يجتمعون كل اسبوع . لقد كانت في عربةٍ تسير سيراً بطيئاً . فلمحها من بعيد ولكنه لم يعرها أية أهمية . فتابع سيره من غير أن ينظر الى العربة أو الى من بداخلها . ولكنه شعر بأن نظراتها كانت مصوبة اليه بشدة وشره . وفيما هو سائر سيره المعتاد رأى العربة وقد عادت الى جهته تسير محاذية له ، وقد كانت قبلا تسير مواجهة اياه . فتعجّب لذلك ودفعه فضول الشباب ان أن يمعن النظر فوجد وجهاً يشرق بابتسامة عذبة تكاد تفصح عن الحقيقة بأتمّ معانيها وعينين لها لمعان مؤثر ، اهتزت تحت تأثيرها أعصابه . ففهم الفتى ، وان كان قليل الخبرة في مثل هذه المواقف ، واعتراه سرور ممزوج بشيء من الخوف لم يعرف سببه . ورنّت في أذنه ضحكة نسائية في ذلك الحين سرت في جسمه سريان الكهرباء . ومرّت العربة في طريقها ولكنها ما كادت تسير بضعة أمتار حتى عادت من جديد مواجهة له . فاضطرب وقد اتضحت له الحقيقة من هذه المناوشات الغرامية . ولكنه تجلد واندفع بحكم هواه نحو ذلك المنبع الجارى ليطفىء فيه جذوة الشباب الملتهبة في جوانحه . واقترب من العربة

وهو مسحور برقة تلك الابتسامة ، وسحر تلك الضحكة ، وكهرباء تلك العيون . فلما حاذاها أرتج عليه وتلعثم في بادىء الأمر ولكنه تغلب على اضطرابه وخجله وقال :

ـ خدمة ياهانم ؟

فتكلمت الهانم قائلة :

ـ (اتفضّل يابيه . اتفضل)

فشعر سامى برجليه تصعدان سلم العربة ثم وجد نفسه داخلها جالساً بجوار هذه السيدة ، يكاد يلاصقها لضيق المكان .

نشأ سامى فى بيئة مصرية قديمة متحفظة لم يدخلها شىء من العوائد الغربية وعاش بعيدا عن الاختلاط الجنسى ، اختلاط الرّجل بالمرأة فلم يجتمع بأحد من النساء الا ما كانت تبيحه عوائد بيته الاجتماع بهنّ ، أشخاص لم يجد بينهن بطبيعة الحال من حرّكت فيه شعور الشباب ونبهت فيه عواطف الرجل نحو المرأة . لذلك عندما وجد نفسه لأول مرة في حياته بجانب امرأة خلاّبة المحاسن ، تلامس يدها يده ، ويلاصق جسمها جسمه ، تغريه بحلو كلامها وجمال ابتسامها ورنين ضحكها ، امتلكه شعور غريب مبهم كله أسرار وأحلام ، شعور مصحوب بلذة حسية لم يشعر بها من قبل ، شعور

الشباب الكامنة ناره المتقدة تحت رماد العوائد والبيئة .

ثم سمعها تقول للسائق :

ــ على الجزيرة يا اسطى

وكانت هذه الجملة على بساطتها وقصرها حاوية لكل رغبات السيدة ومشتهياتها فعرفها سامى دفعة واحدة وعرف معها انه سائر الى الطريق الذى سلكه قبله سائر الشباب ــ الشّباب المطلع على ملذات الكون الخفية ، المحتسي من يد النساء خمرة الجريمة الاولى ، تلك الخمرة التي يغفى معها العفاف والسذاجة ، رفيقا الطفل من مهده الى سن يقظته . فشعر سامى بوخزة الألم فى قلبه وعلت جبينه سحابات من الحزن ، ولكنها لم تدم طويلا .

***

ثم تنهد وهو فى الكهرباء وعاد الى مناجاة نفسه :

ــ ما أحلاها من مقابلة وما كان أحسنه من يوم . لقد كانت جميلة للغاية فى تلك الايام ولا أدرى ما الذى غيرها أمام عيني الآن . انها هى بابتسامتها ورنين ضحكها ، بحديثها ونغمة صوتها . لم تتغير . قوامها وشكلها كما عهدتهما لاول مرة . ولكني لم أصبح اليوم أسحر بابتسامتها أو أوخذ بضحكتها او التفّ

بحديثها أو أطرب بنغمة صوتها . أنا اليوم أقبض على يدها وألمس جسمها الذى ما زال ناعماً بضاً فلا تتحرك مشاعري ، وقد كانت الكهرباء تعم جسمي اذا لمست جسمها . لقد كنت أشتهيها فيما مضى امّا اليوم فانا أملها . لقد ضقت ذرعاً بها .

ثم ترك الكهرباء وسار فى احد شوارع العاصمة وهو يقول :

ـــ باقى على الميعاد نصف ساعة لاغير . لا اريد الذهاب فى الميعاد . فلأدعها اليوم تنتظر . اريد أن أخلو برهة فأعد نفسي لثرثرة لسانها الذى لا يتعب ولا يمل من لفظ كلمات الحب . اف لها من امرأة . لا أدرى كيف لا تخجل من نفسها عند ما تضمني الى صدرها بوله واشتياق . ألا تدرى أنها تبلغ عمر والدتي . يالعجب هذا الحب الذى لا ينتهى .

وسار الهوينا متابعاً سيره وهو غارق فى أحلامه ومناجاته فلم يشعر الا ويد وضعت على كتفه وصوت يهلل به قائلا :

ـــ أهلا سامى بك . أين أنت طول هذه المدة ؟

فالتفت فاذا به صديق بك أحد أقاربه . شاب يبلغ من العمر الثالثة والعشرين غني يصرف دائما عن بذخ وسعة . أنيق الملبس جميل الهيئة . له شارب صغير يرفع دائما طرفيه بالجوزماتيك

على طريقة غليوم الثاني . ليس له صناعة غير الجلوس فى القهاوى وتمضية الليالى فى أماكن اللهو والطرب . لذلك تعلو بشرته صفرة الانهماك فى الملذات واجهاد الجسم بمتاعب الليل . نحيف ، خفيف الحركة ، رقيق الكلام ، حاضر النكتة ، حلو الفكاهة .

فابتسم سامى له وردَّ التحية بأحسن منها . ثم دار بينهما الحديث التالى الذى بدأه صدّيق بك بقوله :

ــ لم أرك منذ أمد بعيد . هل كنتَ مسافراً يا أخى ؟

ــ لم أكن مسافراً ولكن الصدف حجبتنى عنك

ــ ألا تذهب الى القهوة يوم الخميس ؟

ــ كلا

ــ لماذا ؟

فصمت سامى برهة وجيزة لايحير جوابا ثم ابتسم وقال :

ــ عندى شواغل

فأدرك صدّيق ما يخفيه رفيقه فأدنى فمه من اذنه وقال هامسا :

ــ شواغل نسائية يابطل ؟

ــ كلا

قال ذلك والابتسامة ذات المعانى الكثيرة لا تفارق فمه .

ـ (على مين يا بابا)
ـ ولكني اقسم لك أنني غير مسرور .
ـ وهذا يهمني للغاية .
ـ كيف كذلك ؟
ـ فلنكن صريحين . أروى لي قصتك فأروى لك قصتي
ـ أعندك شيء هام تريد أن تخبرني به ؟
ـ كل الاهمية
ـ اذاً تكلم
ـ قلتُ لك فلنكن صريحين . لقد علمتُ من تلميحاتك الساعه انّ عندك من الشواغل النسائيـة مايمنعك عن الاجتماع برفاقك . وانك غير مسرور من هذه الشّواغل. اذاً أفصح .

فتردّد سامي برهـة وهـو حائر لا يدري ما يفعـل . أيتـكلم بافصـاح وحرّية أو يراوغ ويخادع . ولكن صدّيق باغته بقوله :

ـ اذا كنت غير مسرور من رفيقتك فأخبرني لأعرّفك بأخرى . لديّ هدية أريد أن أقدّمها لك عن طيب خاطر .

وكأنّ صدّيق أصاب بكلمته هـذه غاية القصد فانتبه سامي

وظهر على وجهه سرور لم يستطع اخفاءه فأمسك بيد صديقه وشرع يروي له جميع ما وقع له مع رفيقته شارحاً له في النهاية ما يشعر الآن من السآمة والضجر وما يأمله من الانفصال عنها . فبادره رفيقه سائلا اياه :

ـ وما يمنعك من هذا الانفصال اذا كانت رغبتك فيه ؟

ـ أسباب كثيرة : أولا أني لا أعرف امرأة غيرها وأخشى اذا أضعتها لا استطيع معرفة سواها

قال ذلك وأطرق خجلا من رفيقه الذي ابتسم بتهكم على ما قال . ولكنه أتم كلامه قائلا :

ـــ وثانياً أنها تحبني وتغدق علي الهدايا دائما

فقاطعه رفيقه قائلا :

ـــ أو بالاختصار أنها لا تكلفك شيئاً

ـــ أجل . من أجل ذلك لا أرغب في تركها

ـــ أنت شخص « ابن حلال » يا سامي ، رقيق العواطف كأخيك (يعني نفسه) . ان ما يخالج قلبك الحنون يخالج قلبي الحنون أيضاً . وقصتك تشبه قصتي ولكن مع بعض حذف واضافة وتقديم وتأخير .

فابتسم سامى وقال :

— اذاً تكلم وأخبرنى عن قصتك

— قصتى صغيرة للغاية . والمشكل الذى كنتُ لا أستطيع حله قد حلته أنت من تلقاء نفسك .

— أنا ؟

— هو أنت يا عزيزى سامى بك . اسمع : لي خليلة تبلغ من العمر الخامسة والعشرين . مهما أطلت في مدح جمالها ومهما عددت لك أوصافها أشعر بتقصير نحوها . متزوجة وشريفة في الظاهر ولكنها (بنت كيف) فى الخفاء ، تبحث عما تشتهيه من الشبان الملاح أمثالي وأمثالك .... فترسل فى أثرهم الوسطاء (كام محمد وام عثمان وام عبده) لاحرمنا الله من خدماتهن الجليلة ، فيحضروهم لها . وكان ما كان من تعقب أثرى ومن اصطيادي بواسطة « أم عبده » . وصار لي الآن عدة أشهر وأنا معها أقابلها فى الاسبوع دفعتين ، الاثنين والخميس ، فى مكان منعزل فى مصر الجديدة سأخبرك به عن قريب . أنها تحبنى . تحبني للغاية . وكنتُ أحبها أحبها للغاية ولكن . . . .

ثم توقف عن الكلام وتنهد بابتسام وهو يحدق في وجه سامى فسأله رفيقه قائلا :

— ولكن ماذا ؟ أتمم قولك

— أصبت بنفس الداء الذي أصابك

— الملل ؟

— هو بعينه . انه مرض قتال ياعزيزى أرجو لك شفاء منه كما أرجو لنفسي هذا الشفاء

— وما يمنعك أنت — وحياتك كما اعرفها بين النساء دائما — من أن تترك رفيقتك

فتنهد ثانياً صديق وهو يبتسم لرفيقه ابتسامة خفيفة وقال :

— (صعبانه علي)

— أنت رقيق القلب جداً

— أما قلت لك

— ولكن ما شأني أنا ؟

ففاجأ صديق رفيقه بقوله :

— ألك في مبادلة ؟

— أي مبادلة تعني ؟

— مبادلة نسائية . أتنازل لك عن رفيقتي وتتنازل لي عن الخنونتك . بهذه الطريقة نشفى أنفسنا ولو الى حين من دائنا الذى واضافة نه

فأطرق سامي وهو يفكر ثم رفع رأسه مبتسما وقال :

ــــ ولكن صفقتي ستكون الرابحة بعكس صفقتك

ــــ قابل على أى حال . ان فى الجديد لذة

ــــ ولــكن ما هي الطريقة ؟

ــــ ميعادي فى الخامسة والنصف ، وميعادك ؟

ــــ في الخامسة والنصف

ــــ اذاً يسير كل منا في طريق صاحبه . وعند المقابلة يدّعي كل منا أنه مُرسـل من قبل صديقه ليعتذر عن الحضور بسبب المرض أو السفر أو خلاف ذلك . الاسباب كثيرة . . .

ــــ ثم ؟

ــــ ثم . . . ثم ... لا أدري . على كل منا أن يتبع مايتراءى له . مقدمات عن الطقس مثلا . كلام بسيط لا يخلو من بعض الانتقاد على الشخص الذي كلفه بهذه المأمورية . ثم حديث عن الحب بالتدريج . . . الى آخره

ــــ فهمت . ولكن ألا تجدها جرأة ؟

ــــ أبداً

ــــ ولكنك قلت لي منذ برهة أنها متزوجة

— أجل

— وهذا ما يخيفني

— يخيفك من أي شيء . سوف أعرفك بزوجها . وسوف تمكث معه في « جروبي » . أتريد أن تراه الآن ؟

— أبداً

— سوف تشعر ياسامي بلذة غريبة ممزوجة بشيء من الكبرياء والفخر عند ما تلقي بنظرك على زوجها . انه شعور جميل ورهيب في آن واحد

ثم أخرج ساعته وقال :

— يجب أن نفترق ان الساعة ستة إلا ربع

— إذا أرجوك أن تكتب لي العنوان ياعزيزي

— وأنت ألا تتكرم بأن تخبرني عن عنوان صاحبتك يا عزيزي ؟

وفي وقت واحد أخرج كل من سامي وصدّيق ورقة وقلما وجعل كل منهما يكتب العنوان لرفيقه . وعند ما انتهيا أعطى كل منهما ورقته للآخر ثم مدا يديهما وسلما وهما يبتسمان ابتسامات خفية . وقبل أن يفترقا تكلم صدّيق ياجن رفيقه بقوله :

— أوصيك خيراً ياعزيزي..... و Bon appetit

أبو دبش

أبو دريش

عثمان بك زاهد رجل غني من طبقة الارستقراطية المصرية يسكن مع عائلته في ضاحية الزيتون . يناهز اليوم السابعة والسبعين محني الظهر ، أشيب الشعر ، ضعيف السمع ، مرتعش اليدين ، رأسه دائما في اهتزاز . يلبس النظارات الذهبية دائما ولكنه لا يرى بها أكثر من رؤيته بعينيه المجردتين لانه أصبح الآن أقرب الى العمى منه الى البصر . له دور وحوانيت عديدة في العاصمة تدر عليه سنويا ربحاً جسيما هو دخله الذي يعيش منه . ترك رقابة المنزل وادارة العمارات لابنه الوحيد عبد الغني بك زاهد الذي يبلغ من العمر اليوم الخامسة والاربعين . اعتزل الآن الحياة خارج منزله بل خارج حجرته الخصوصية وتخلى مرغمًا عن زيارة الاصحاب والجلوس على القهوة والسهر في البيرات ، وأقنع نفسه مضطراً بعيشة هادئة لا حركة فيها ولا مجون ، وكان قبلا رجل الحركة والنشاط والمجون ، رجل الصخب والشدة والطغيان . يأتي له كل يوم شيخ معمم يبلغ من العمر الثامنة والاربعين ، بدين الجسم ، قصير القامة ، أحمر الوجه لادمانه شرب الخمر ، منتفخ العينين ، كبير الانف ، يلبس الملابس

الرثة القذرة ـ ليقرأ له الجرائد والروايات القصصية وينقل له ما يسمعه من الافواه من أحاديث خلقة في السياسة وكلام مزرٍ عن الناس. يُدعى هذا الرجل بالشيخ نجم الدين. جاء من بلاد الريف والتحق بالازهر ولكنه فشل في دراسته لسوء أخلاقه وشراسته مع أساتذته ورفاقه، ولاقباله على السهر والسكر والعربدة وعدم مواظبته على تلقي العلوم. والتحق بعد رفته من الازهر بمكتب محامٍ شرعي لم يشتغل فيه الا بضعة أشهر طُرد في نهايتها أشنع طرد. ثم جاء به أحد مستخدمي المنزل ليكون جليساً لعثمان بك زاهد ومقرئاً له. وكان الرجل على جانب عظيم من المكر السيء وله أسلوب جميل في الكلام يستطيع به التأثير بكل سهولة على قلب رجل شيخ كعثمان بك فأحبه الاخير ووثق به وأغدق عليه الهبات.

كان لعثمان بك زاهد فيما مضى غرام كبير بتربية الطيور فكانت له « غية من الحمام » كان يتعهدها بنفسه بالطعام والشراب والنظافة بمساعدة خادمه خليل الذي أصبح الآن يدعى « عم خليل البواب ». في تلك الايام، أيام كان زاهد بك يجري في عروقه دم الرجولة والقوة كانت المضاربة بالديوك والخراف من العادات

الشائعة بين فئة كبيرة من فئات الارستقراطية كما نشاهد اليوم شيوع عادة حرب الثيران فى اسبانيا . وكان قد اشتهر اسم زاهد بك على سواه مقروناً باسم ديوكه المنتصرة فنال بذلك شرفاً عظيماً دونه كل شرف . وتباهى بجنوده الديكة على رفاقه تباهي القائد المنتصر بجنوده على أعدائه . ونال عم خليل البواب كسيده اسماً عظيماً كبيراً فى ميدان عمله واشتهر بعلو كعبه فى تدريب الديوك تدريباً خاصاً واطعامهم طعاما خاصا ودهنهم بالزيوت التى لم يكن غيره يعرف تركيبها وخواصها . وتسابق هواة المضاربة يريده كل واحد منهم لنفسه ليستفيد من مواهبه . ولكن عم خليل كان أميناً لسيده فلم يترك خدمته . وعرف سيده منه ذلك الاخلاص فأحسن اليه وأعلى مرتبه .

كان عثمان بك زاهد لآخر وقت من أوقات صحته ونشاطه محتفظاً بحمامه وديوكه ، يطير الاولى كل يوم من سطح منزله مراقباً اياها فى غدوها ورواحها ، وينظم حفلات المضاربة للثانية فى حديقته حيث أعدّ لها مكاناً لائقاً للقتال والفرجة . فى ذلك المكان كان يجتمع هواة المضاربة يشاهدون قتال الديوك بقلوب خافقة وعيون شرهة كما يجتمع اليوم هواة الرياضة فى المكان الخاص بالالعب يحضرون

حفلات البوكس والمصارعة . ولما بدأ المرض يتغلغل فى جسم زاهد بك واخذ يشل حركته رويداً ويعجل الشيخوخة التى كان يقاومها ويجاهد مستبسلا فى سبيل منعها ، لم يجد فى النهاية مفراً من الرضوخ للقدر فودّع ايامه الماضية بحسرة ويأس وأخذ يعد ايامه المقبلة يوماً يوماً منتظراً بوحشة ورعب ذلك اليوم الرهيب الذى سيزوره فيه الموت ، مترحماً على سعادته الغابرة ، تلك السعادة التى كانت مقرونة باللهو والمسرة ، متوجة دائما بالقوة والصحة ، والتى أصبحت الآن تتضاءل أمام عينيه ، يخبو نورها البراق رويداً كما يخبو نور عينيه يوماً بعد يوم .

اعتزل اليوم زاهد بك حياة الديكة والحمام واقتنع من دنياه بركن صغير فى ذلك المنزل الكبير يجلس فيه متربعاً على مقعد كبير مريح لابسا جلبابه الواسع وطاقيته البيضاء ذات الاطار العالى وعلى عينيه نظّارته الذهبية المعتادة وبين أصابعه (قمّة الكهرمان) ومسبحته العود ذات الرائحة العطرية . فان كان الوقت شتاء فشاله السميك لا يفارق ظهره وبطّانيته الصوف الكثة الوبر لا تنزل من على ركبتيه تخفى تحتها قدميه الضعيفتين الباردتين ، وبجواره الشيخ نجم الدين بوجهه المنتفخ الأحمر وجبته القذرة جالساً يطالع

له الجرائد ويفسر له بين فترة وأخرى ما غمض عليه من الاخبار الخارجية والداخلية .

خشي زاهد بك أن ينال حمامه وديوكه الاهمال ويلحقها الأذى والذل وهي بعيدة عن رقابته فوزّع الاصناف الجيدة منها على رفاقه الهواة ومنح الباقي لابنه عبد الغني بك هبة يتصرف فيها كما يشاء ، فأتى عليها الابن ذبحاً في بحر اسبوعين . وباختفاء هذه الطيور المحبوبة من المنزل اسدل الستار على حياة زاهد بك الاولى التي قامت الديكة بتمثيل دور هام فيها . ولكن زاهد بك الذي قسّم طيوره بين رفاقه يتعهدونها بالعناية والرعاية وبين ابنه يقيم على ذبحها ولا ألم له ولافراد منزله حفظ لنفسه منها طيراً واحداً كان معتزاً به ، فخوراً بانتصاراته ، فضنّ به حتى على أوفى اوفيائه . هذا الطاير ديكٌ هرم قليل الريش يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً ويسمى « أبو درش » . كان فيما مضى ديكاً فتيا حاد المنقار ، قوى المخلب ، صلب الجناحين له عرف قاني يتوج رأسه الفخور الدائم الصياح . ماضيه صفحة مجيدة مكتوبة فيها بمداد الدم وقائع حروبه التى خاضها مستبسلا ، منتصراً ، شامخاً بعرفه كبرياءً وزهواً . هو الذي منح سيده شارات النصر المتوالية في ميدان المضاربة وخلّد اسمه

منقوشاً في تاريخ هواة الطيور لا يدانيه اسم غيره . لذلك اعتز به زاهد بك اعتزازاً كبيراً وأبقاه مكرماً مهاباً ، وفاء للعمل الكبير الذي أداه له . وأمر أن يقيم كما هو في محله الواسع الكبير الذي كان يشاركه فيه رفاقه الشبان والكهول ، من كان المكان عامراً بهم وبأصواتهم العالية الرنانة ، فأصبح الآن خاوياً لا يضم الا ذلك « الهيكل العظمي المكسو بالريش » وارث العروش الهاوية والحاكم المطاق في مملكة اقفرت من سكانها

***

وكان عم خليل — قبل أن يغدو حارساً المنزل و يمنح لقب بواب — رئيس الخدم المكلفين بالعناية بأمر الطيور . كان بارعا فى هذه الصناعة براعة لم يسبقه فيها أحد ، مدفوعاً فى عمله بميل ثابت فى قلبه يكاد يكون غريزياً . لذلك اشتهر اسمه سريعاً فى مملكة هواة الطير وعرفه القريب والبعيد فصار علماً من أعلام ذلك الميدان وحجة يرجع اليه كل من أعيته الحيل أو خانه الحظ فى حلبة المضاربة . عاش عم خليل ايامه السالفة وهو زعيم جليل يُخشى بأسه ، يقوم بخدمة مولاه على أتم اخلاص ونشاط ، مغتبطاً بحياته فخوراً بعمله وعلمه . ومضت السنون سراعاً والرجل جاد فى عمله لا يعير العالم

التفاتا ، ولكن العالم كان يتحوّل رويدا ، يسير الى الأمام سيره المعهود يحطم هياكل الماضي ويشيد قصور المستقبل . كل شيء كان يتغير ويتبدل ، الجديد يتبوأ عرش القديم والناشيء يحتل مكان الشيخ . كل شيء كان يتغير حتى مولاه ـ الذي ناصب المرض والشيوخة العداء ، وظن الناسُ أنه سيفوز بحياة لا وهن ولا اختلال فيها ـ قد خسر الموقعة وارتد عاجزا الى الوراء ، حتى المضاربة بالطيور وجدها توسع المكان لسواها من الالعاب فحلّت الخيول في ميدان السباق محل الديكة في حلبة القتال ، حتى شخصه القوي الجريء الذكي كان يتحول بسرعة مخيفة الى شخص واهن القُوى ، ضعيف القلب ، معكر الذهن ، ضيق الخلق . وعلم أن الشيخوخة بدأت تسري في جسمه سريان السم في الجسد . وجدها تهاجمه بعناد وهي فائزة منتصرة بينما أخذ هو يتقهقر بخطى سريعة الى ملجأه الأخير محطماً سيفه مستسلماً لرحمة عدوه . تنبه الرجل من غفلته وجعل يغالب حقيقة اليقظة بأحلام الماضي ولكن عبثا ما فعل . رأى سيده ومولاه ينزل من علياء عرشه وينزوي في حجرة واحدة يقضي فيها ما بقي من أيامه ، ورأى طيوره المحبوبة من ديكة وحمام توزّع بسخاء كبير على الاصدقاء أو تُسلّم للطاهي

السفّاح يعمل فيها بسكاكينه الحادّة كما يعمل الجلاد بسيفه وبلطته في رقاب الجناة . لقد امتنع عم خليل عن أكل اللحوم وقت أن كانت مذبحة الطيور قائمة في فناء المطبخ وحبس نفسه في حجرته لا يتناول فيها الا الجبن والزيت ليحجب عن عينيه رؤيا يقشعر منها بدنه ويدمى لها فؤاده ، وليمنع عن اذنيه صوت أحبائه بل وفلذات كبده وهم يصيحون صياح الاستغاثة تحت يد الجلاد .

لقد تفرّق الخدم الذين كانو تحت امرته كما تفرّقت أفراد الطيور من قبل . لم يبق من تلك العصبة الكبيرة العدد الا ثلاثة : السيد في قصره ، وعم خليل في حجرته ، والفرخ الهرم في وكره . وكاد السيد ينسى كل شيء يحيط به في منزله الا عم خليل و«أبا درش» فأوصى الأول على الثاني وصية يرعاها في حياته وبعد مماته . ووجد عبد الغني بك زاهد ــ المتصرف الآن في قصر أبيه ــ ان مرتب عم خليل كبير على وظيفته التي أصبحت في حكم الملغاة فمنحه لقب بوّاب ، وأمره أن لا يفارق الباب ، يراقب الداخل والخارج وينتبه لحضور الزوّار . فصدع عم خليل للأمر واحتلّ كشك الباب طول يومه لا يفارقه الا لتأدية فرض الصلاة وتناول الطعام . واضطر أن يفارق قفص ديكه فلم يزره الا صباحاً ومساء ليطعمه ويسقيه ويعتني بأمره .

ومضت عدة شهور وعم خليل قائم بحراسة الباب والاعتناء بالديك الهرم «أبى درش» . وكان فى هذا الوقت قد بلغ الخامسة والسبعين فشعر بوهن قوته وخمود شعلة الرجولة التى كانت قديماً متقدة فى قلبه . وبدأ يسأم ذلك العمل الممل — حراسة الباب — معتبراً إياه عملا شاقا متعباً يكلفه تضحية نفسه وصحته لانه كان يصبو فى طوره هذا الى حياة الكسل والخمول ، يمضي الوقت فى حجرته يأكل وقت الأكل ويصلي وقت الصلاة ويزور ديكه فى الميعاد المقرر له ثم ينام بقية اليوم وكل الليل فى هدوء وطمأنينة لا يزعجه زائر ولا يسأله سيد ولا يثقل عليه خادم بكلام لا يريد أن يسمعه .

ولاحظ عليه الخدم أن أخلاقه تسوء يوماً بعد يوم ، وانه بدأت تظهر على محياه بعض سيماء البلاهة . فأخذوا يشاكسونه مشاكسة خفيفة . وبدأ هو يظهر الغضب والحماقة حتى من الكلام التافه والاعمال الاعتيادية . فجرأ ذلك الخدم على الاكثار من مشاكسته والسخرية منه استفزازا لحماقته وغضبه حيث كانوا يجدون فيهما ما يضحكهم ويسليهم . وأعلموا الشيخ نجم الدين بالامر — وهو الشيخ الماكر الخبيث — فوجدها فرصة سانحة تنيله ما يبتغيه من شر فيطلق

لسانه الثائر فى حلقه ويصلى به على ذلك الهرم المسكين ينفث عليه حقده وأذاه . وكان الخدم يخافون الشيخ نجم الدين لقحته وخبثه وسوء نياته وقدرته الفائقة على التنكيل بخصومه تهكما وسخرية ، فرغبةً منهم فى اجتناب شره حرضوه على عم خليل البواب ليتفكهوا باستثارة حماقته وغضبه .

وازداد على توالى الايام خمول عم خليل وتكاسله وإهماله أمر نفسه فجعل يمضي أغلب الوقت فى كشكه نائماً . وبدأ ينسى أو يتناسى فروضه الدينية ، يتغاضى عن تأديتها فى كثير من الاحيان ، مفضلا الركون الى الدفء والراحة على الانهماك فى الوضوء والقيام بفرض الصلاة . وكيف يترك عم خليل كشكه الدافىء والوقت الآن شتاء ، لبرده القارص لذع كلذع الحشرات ، ويذهب الى الصنبور (الحنفية) فيخرج له من تحت شاله السميك رأسه ويديه ويقدّم له من « بلغته » الساخنة قدميه العاريتين ، ليصب عليهما ماء قد برّده جو الشتاء . لقد أخذ يتغاضى عم خليل عن فروض دينه كسلا وخمولا ، كما بدأ يتغاضى عن العناية بأمر ديكه ضجراً وإهمالا .

كانت حياة عم خليل قد تغيرت تغيراً تاماً وأثر هذا التغيير

على نفسه فأهمل في بادىء الامر كل شيء الا فرضه لربه وواجبه نحو ديكه . ولكن توالى الايام جعلت هذا الاهمال يتطرق الى هذين الفرضين العزيزين فبدأ يهمل واجبه عنه ربه ويتغاضى عن العناية بأمر صديقه أبي درش منتحلا لنفسه أعذاراً مقبولة لديه .

وبدأ الشيخ نجم الدين مشاكسته فكان يوقظه دائماً من نومه وينهره بغلظة وتكبر منبها إياه لواجبه ومتوعداً إياه بشكايته لصاحب الامر في المنزل . فكان عم خليل يقابل تلك المشاكسة في بدايتها باللين واللطف معتذراً مرة ومستعطفا اخرى ، شاكيا له ضعفه وشيخوخته والبرد القارص الذي يضطره بالرغم منه لالتزام كشكه . ولكن عبثا ما قدمه عم خليل من الاعذار وعبثا ما طلبه من الرحمة والعطف . وكأن ذلك الرضوخ المزري قد شجّع الشيخ نجم الدين في قحته وجوره التهكمي فازداد عتواً وعسفا . وتحول عم خليل من الاستسلام الى العناد . فاطلق العنان لحماقته وبلهه اللذين حبسهما بالرغم منه تجنبا لشر الشيخ نجم الدين وخبثه . وبدأ الشجار كل يوم بين الاثنين ، كما بدأ الضحك يتعالى من جانب الخدم فيزيد عم خليل نكاية وغيظا .

* * *

وتخطّى يوما الشيخ نجم الدين عتبة الباب الخارجي داخلا حديقة المنزل . والتفت الى كشك البوّاب فوجده خاليا فعجب لتغيبه وذهب يبحث عنه فى الحديقة فوجده فى وكر الديوك يطعم ديكه الهرم أبا درش ، فصرخ به صرخة أرعبته قائلا :

— انت بتعمل إيه يا بأف

فالتفت عم خليل الى محدثه مقطبا جبينه ولم يجب .

فصرخ فيه الشيخ نجم الدين صرخة أشد من الصرخة الاولى ودخل الوكر رافعا عصاته فى وجهه وهو يقول بغلظة واستبداد :

— انت ما بتردّش عليّ يا راجـل . طيب أنا حخلّي يومك النهار ده اسود زي وشك

فأسرع عم خليل وقال بتلعثم :

— بوَكّل ... أبو ... درش .. يا استاذ ..

— أبوه امال اتهبل كده . جك عمى فى عينك

وبعد أن قام الشيخ نجم الدين بواجب الشتيمة والسخرية نحو الرجل الكهل واستثار عليه ضحك الخدم جميعهم ، كباراً وصغاراً ، تركه يكاد يبكى من شدة الالم والغيظ ، قاصداً حجرة زاهد بك ليقرأ له الجرائد والروايات .

وفى اليوم التالي دخل الشيخ نجم الدين المدينة واتجه نحو كشك عم خليل فوجده نائما فيه فأيقظه بعصاته كما يوقظ السيد كلبه . ثم انتهره بغضب وقال له :

— يعنى شايفك نايم ! ؟

فأجاب عم خليل بحماقة وهو يدعك عينيه :

— نايم نايم . وانت مالك ؟

— انت بتكلم مين يا ابن الكلب

فأمسك عم خليل عن الكلام وهو يتثاءب وأتم نجم الدين كلامه فقال :

— مرّة تانية ترد عليّ وانا بكلّمك حتلاقي الاقلام نزلت على اصداغك خبطت لك وشك . انت فاهم ؟

فأجاب عم خليل بغيظ :

— لأمش فاهم

ولكن لم يتم كلمته الاخيرة حتى رنّت فى أذنه صرخة أصمّته ، كانت صرخة الشيخ نجم الدين وهو رافع يده موهماً اياه بأنه على وشك أن يصفعه ، قائلا :

— اخرس .. يا ديوز . يا دقن تميتم

ثم صمت فترة وجيزة . وسأله مغيراً لهجته قليلا :

ــ ماو كانتش سيدك ليه النهار ده ؟

ــ سيدى مين ؟

ــ سيدك مين !! يا ماانتش عارف مين سيدك وتاج راسك اللى بتخدمه كل يوم وبتاخد ماهيتك علشانه ؟

ــ لأ . مانيش عارفه .

ــ ماانتش عارف ياراجل سيدك « أبو درش » ؟!

ــ أبو درش سيدى ؟ !

ــ مش عاجبك يبقى سيدك . طيب بلاش . ابنك أمال . ايه رأيك .

وكان قد اجتمع حولهما في هذا الوقت البستاني ومساعده والطاهى وصبيه والفراش وعدة أفراد اخرى من الخدم وبدأوا يضحكون . وقال الشيخ نجم وهو يوجه كلامه للجميع :

ــ ياجماعة عم خليل ولد وَلَدْ . مش تباركو له

فتقدم الجميع ضاحكين هازئين الى عم خليل وأخذوا يباركون له بهزء وسخرية . وتكلم الشيخ نجم الدين فقال :

ــ والولد دا ء أهو ء فى تقفيصة الفراخ هناك ... شايفينه ... حكمتك شريفة يارب . انت كنت إتوحمت على ايه لما ولدت أبو

درش ده ياعم خليل ! ؟

فقهقه الجميع . وصرخ عم خليل بحماقة وهو يدفعهم من حوله . ولكن الشيخ نجم الدين نظر اليه نظرة قاسية وقال له بلهجة السيد المطاع :

ـ اخرص ياراجل . احترم أسيادك اللي قُدّامك دول .

ثم وجه خطابه لجماعة الخدم المحيطة بهما قائلا :

ـ الغرابة ياجماعة ماصادفنيش فى عمرى أبداً أشوف اتنين يشابهم لبعض ، يعنى انطابق الناطق واحد ، أد عم خليل وأبو درش ... مش كده والا ايه ؟

فصاح الجميع وهم يضحكون ويضجون موافقين على كلامه . وأتم الشيخ نجم الدين قوله ملتفتا الى عم خليل الذى كان يرتجف غيظاً وحنقاً فقال :

ـ تعرف يابو خليل منقارك المدلدل ده ، تمام منقار أبو درش . وعينيك دول اللى قد الترتره ، تمام عينين أبو درش . ودقنك أم شعر منتوف دى ، تمام دقن أبو درش ...

فقال أحد المجتمعين هازئاً :

ـ طيب مانسميه أمال أبو درش ؟

له نبرات ذليلة محزنه .

جنى عم خليل على هذا الطير المسكين جناية لا تغتفر . لقد كان بالامس ملك الديكة وقاهرها ، شباب غض وعود صلب وشهامة وانفة ، مدللُ الجانب يُطعَم أفخر الاطعمة وينام فى أنظف الاوكار وأحسنها ، فاصبح اليوم جثمانا من العظام التى يكسوها جلد مجعَّد منثور عليه بقايا الريش ، مهان فى كرامته وشممه ، مهمل فى عيشه ، يُطعم أسوأ الاطعمة وأقلها ، وينام فى وكر لم يبق فيه شيء من آثار النعمة الا جدائل من الجريد المتداعى القوائم تكاد تهوى عليه فتخمد أنفاسه فى لحظة .

وجاء عم خليل مهرولا نحو القفص يتنفس بجهد وتقدح عيناه ناراً مستعرة من الغيظ وذلك على أثر مجادلة حادة بينه وبين الشيخ نجم الدين ورفاقه ناله منهم أقسى أنواع السخرية وآلمها على النفس . واقترب من الوكر وسحب عصى من عصى القفص وجعل يكز بها جثمان الطير الهرم بألم وشدة وهو يكيل له الشتائم كيلا جزافا والطير يصرخ مرة بصوت ضعيف ويجاهد أخرى فى دفع العصا عن نفسه . ولكن قواه خذلته فاستسلم لوكز العصا المؤلمة وأصابه دوار شديد يشبه الغيبوبة . فتركه عم خليل وشأنه شاعراً براحة نفسيه بعد هذا

التعذيب ، مقسماً أمام الديك بأغلظ الاقسام انه سيحرمه من الطعام يوما بأكمله .

ذهب بعد ذلك الى كشكه قرب العين وأخرج الحصير المعد للصلاة وفرشه بجواره وأخذ يصلي صلاة العصر بحرارة وانفعال . وفي الصباح ذهب الى مكان « أبي درش » وهو يحمل في يده طعامه الضئيل المكون من بضع فتات من الخبز مخلوطة بعجين الردّة فوجد الطاير في قفصه يرتعش من شدة البرد ويهتز جثمانه هزات قوية على أثر تنفسه . فلما رأى عم خليل قادما أصابه رعب مصحوب باستسلام فلم يستطع أن يحرك ساكنا اللهم الا رأسه الذي كان يديره بوهن شديد يريد عبثا أن يخفيه . ولما تبين صحن الطعام في يد الرجل تجرّأ على النظر اليه بعينين ذابلتين فيهما طابع الخوف والجوع كأنه يطلب منه برحمة أن يمنحه طعامه الضئيل . ولكن قلب عم خليل كان قد تحول الى قلب صخري تجرّد من أية رحمة أو شفقة فأقفل بشدة باب القفص الذي فيه الديك ووضع الصحن قريبا منه بحيث يراه ولا يستطيع أن يأخذ منه شيئا . ثم خاطبه قائلاً :

ـ أهو الأكل قدّام عينيك ولكن ما انتش واكل منه حاجه .

ثم خرج من القفص وجلس في مكان قريب يستطيع منه أن يراقب الطير فوجده يمد رأسه من بين عيدان القفص نحو صحن الطعام وهو يجاهد عبثا جهاد المستميت لينال شيئا مما فيه . كان عم خليل ينظر الى الطير الهزيل الجائع نظرة التشفّي والسرور وهو يبتسم ابتسامة الظافر . ثم ترك المكان بعد أن شاهد الطير يضع رأسه على عودٍ أفقي من عيدان الوكر تعباً ويأساً وأخذ ينظر الى طعامه بشره وضعف .

وفى صباح اليوم التالى ذهب عم خليل الى الوكر وقد خمدت جذوة الانتقام في قلبه وعزم أن يقدّم للطير طعامه ايا كان . واقترب من القفص الداخلي وفتح بابه فلم يتحرك الطير ، لا خوفاً منه ولا رغبة فى طعامه . فحرّكه عم خليل بعود من عيدان القفص فظل على حاله ساكناً كأنه كومة من العظام ملقاة فوق القش فعجب عم خليل وناجى نفسه قائلاً :

ـ ياترى مايكونشي جرى له حاجة .. دا بقاله يومين ما كلشي .

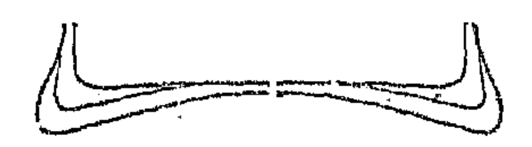
ثم دنا منه وحمله فى يده فألفاه جثة باردة متفككة الأوصال . فنظر اليه مليا وهو مأخوذ متحير لانه لم يكن يخطر فى ذهنه أن يموت الديك هذه الميتة من يده . وناله في أول الأمر بعض الحزن

والأسف وتوبيخ الضمير ، ثم أخذت تتزايد رويداً كلما نظر الى فريسته في يده ، متذكراً الماضي برخائه وطمأنينته والحاضر بتعبه وهوله . وشعر بالدموع تتكاثف في عينيه ثم تنحدر على خديه. فأخذ يبكي ويعول وضم ذلك الجثمان العفن الى صدره فسمع طقطقة عظامه تتكسر من أثر ضمته فرمى به سريعاً الى الارض وخرج هاربا مرعوباً من تلك الجيفة التي سمع عظامها تتكلم بالشكاية منه . وقابله عدد كبير من الخدم جاءوا على أثر صياحه وعويله وسألوه ما الخبر فصاح بهم وهو يبكي ويعول كالاطفال قائلاً :ـ

ـ أبو درش مات ياجماعة ... أبو درش مات ... وأنا اللى قتلته بايدى ... ؟

ملحوظة : كتبت هذه الاقصوصة متأثراً بعض التأثير من قطعة للكاتب الفرنسي المعروف «جي دوموبسان» . والحقيقة لزم التنويه .

(المؤلف)



صديقي تلميذاً وموظفاً

صديقي

تلميذاً وموظفاً

١٢ يناير سنة ١٩٢٥

عزيزي فؤاد   بمدينة لندن

لا أريد أن أملأ خطابي بسلامي وتحياتي فأنت أعلم بودتي واخلاصي . وانما اريد وأنت اليوم بعيد عن جو مصر أن اكتب شيئاً عما أراه وأشعر به لتشاركني شعوري وأنت في غربتك كما كنت تشاركني اياه حينما كنت بيننا . اجد ايها الصديق لذة زائدة حينما أجلس امام مكتبي وأمسك القلم بأخط لك ما استجمعته في رأسي من أفكار ومشاهد أعلم انك في شوق لسماعها . ذلك لانى أتصور نفسي في ذلك الوقت بجوارك أحدثك حديث قلبي . وما أشهى وقت قضيته أحدثك وتسمعني وتحدثني وأسمعك .

لقد كتبت لك أيها الصديق انني انتظمت في سلك الموظفين منذ أيام . وقد كنت أود ان أفيض عليك بشعوري الخاص عن هذه المملكة وما حوته من رؤوس وأذناب . وأصف لك مناخها ولون سمائها وطبيعة أرضها ولكن الوقت القصير الذي أمضيته للآن

في تلك المملكة أو بالأحرى في ذلك المكان لم يمنحني الا صورة ضئيلة من ذلك العالم العظيم . لذلك سأقصر حديثي على شخص من أصدقائي الذين امتلأت رؤوسهم بأبخرة ذلك المكان وتشربت نفوسهم بجو تلك البيئة. فهو ربيب الوظيفة دخل في كنفها منذ خمسة عشر عاما . هذا الصديق الذي احدثك عنه يُدعى عبد الغني، أعرفه منذ كان تلميذاً في المدرسة الابتدائيـة . كان في السنة الرابعة بينما كنتُ في الثانيـة . والآن وقد ضمنا مكان واحد للمرة الثانية أريد أن احدثك عنه أولا تلميذاً ثم موظفًا لأني وجدت « نفس » صديقي التلميذ لم تتغير في الجوهر عن « نفس » صديقي الموظف وان كانت قد اتخذت لهـا اليوم شكلا جديداً يناسب البيئة التي يعيش فيها .

كان عبد الغني في فرقة لاعبي الكرة لمدرستنا وكان مشهوراً ومعروفا عند الجميع بشجاعته ومهارته في اللعب . ولم أكن في ذلك الحين أعرفه معرفة الصديق بل معرفة سطحية لم يكن يعرها أية أهمية . لانه كان يعتبرنا في نظره أطفالا صغار العقول والأجسام ، اذ كان في السنة الرابعـة ونحن في الثانية وكان من فرقة لاعبي الكرة التي تدافع عن مجد المدرسة وفخرها في حيازة الكأس الفضي.

حقاً يافؤاد لقد كنا نعتقد أنفسنا ونحن في هـذا السن أطفالا . لا ننظر الى هؤلاء الابطال الا نظرة الاجلال والاحترام ممزوجة بمحبة داخلية لهم . وطالمـا سمعنا عنهم روايات لذيذة كنّا نتناقلها ونتحدث بهـا كأنها روايات أبطال القصص القديمة . لذلك كنتُ احترم عبـد الغنى بالرغم من عدم اهتمامه لى وكنت أضمر له محبة داخلية لم أكن اظهرها له الا في ملعب الكرة حينما تلاعب فرقة مدرستنا فرقة مدرسة أخرى ، فأهتف له ومن معه تشجيعاً لهمم واستحساناً للعبهم .

ما أشهى ذلك الوقت الذي كنتُ أصرفه في ملعب الكرة عصر يوم الخميس مع جماعة من أصدقائي الأطفال . كنا ننتظر يوم الخميس بفارغ صبر فاذا ما تركنا المدرسة ظهراً وتوجهنا لمنازلنا شعرنا كأن حملا ثقيلا قد خف من على عاتقنا فنتناول طعام الغداء بسرعة غير مبالين بحركة الهضم ثم نخرج ميممين الملعب لنشاهد فرقة مدرستنا تلعب مع الفرقة الاخرى . أمام باب الملعب المقفل كنا ننتظر ونحن نقفز مرحا ونضحك طربا . كنا نشرب الفازوزة الحمراء ونشترى الفول السودانى واللب ونتقاذف بقشر البرتقـال واليوسف افندى . واذا رأينا ضابط المدرسة اهتزت قلوبنا فرحا

ناسين شدته وخطورته ونجعل ندور حوله باسمى الوجوه مهللين وهو يتلقى ابتساماتنا بوجه هادىء غير مقطب تلوح عليه بعض امارات الجذل . وكثيراً ما كان يحادثنا محادثة الصديق للصديق فيسقط من بيننا حجاب الكلفة الممقوتة . كنا نحب ضابطنا في ذلك اليوم فقط . وبقدر ما كنا نحبه عصر الخميس كنا نكرهه صباح يوم السبت وهو واقف في فناء المدرسة يصرخ بصوته الخشن قابضاً على ورقة العقاب يقيد فيها اسم من تأخر أو اسم من وجد حذاءه غير نظيف .

وعندما يقترب الضابط من باب ملعب الكرة يهرع أحد الفراشين ويفتحه له فيدخل متثاقل المشية تملوه الهيبة والوقار . وعندما يحين الميعاد — ميعاد فتح الباب — يجتمع التلاميذ وهم يصرخون ويصخبون ، شاتمين مهددين الفراش الحارس . وعندما يُفتح الباب يتدفق ذلك الجيش الصغير داخل الملعب فيحيي كل تلميذ فرقته بصوت حاد رفيع حماسي . في ذلك الوقت الهائل كنت أسرع الى مكان موافق وأقبض بيدى الصغيرة على حبل ... ب مدافعاً عن محلي ممن يريدون اغتصابه . واذا ما ظهر في فناء الملعب جماعة اللاعبين ويدوى التصفيق الشديد لهم يبدأ

قلبي يدق دقاته السريعة ، دقات الخوف والرغبة — الخوف من فشل فرقتنا والرغبة في انتصارها . وحينما يبدأ اللعب كنتُ أسمع بين فترة وأخرى صوت أحد أصدقائي يصيح قائلا :

— ألله يا عبد الغني

فأنظر الى عبد الغني فأراه مشمر اليدين ، محتقن الوجه ، يغلي دمه كما يغلي ماء المرجل فأشعر بسرور عظيم ويقرب أملي في الانتصار . ثم تحتبس بغتة الانفاس وتمتد الأعناق وتضطرب القلوب اذ يهجم الفريق الآخر على فريق مدرستنا واذا بصديقي يصرخ صرخته المعهودة قائلا بصوت حماسي رفيع :

— الله يا عبد الغني

فاذا بعبد الغني قد امتلك زمام الكرة وقذف بها بعيداً عن المرمى فيدوي المكان بالتصفيق والهتاف . وأصوّب نظري الى عبد الغني فأراه كأنما عظم جسمه وتطاولت قامته وعلته هيبة جليلة وأخذ يخطر باعجاب وزهو ولسان حاله يقول « يحق لكم يا بني مدرستي أن تفخروا بي فانا حاميكم ورمز آمالكم » .

في ذلك المكان أيها الصديق حيث تختنق فيه النفوس وتذوب فيه القلوب وتدمى فيه الأيدي وتبح فيه الأصوات

وتمتلىء منه العيون غباراً والرأس دواراً كنت أشعر بالسعادة التي ليست بعدها سعادة . وحينما أعود من الملعب منهوك القوى مصدوع الرأس قذر الثياب مغبر الوجه تقابلني جدتي ببعض الامتعاض وهي تنظر الى هيأتي الرثة ثم تأخذني من يدي وتبدأ تنزع ملابسي وتغسل رأسي ويدي وقدمي بينما لساني الثرثار لا يهدأ لحظة راويا لها كل صغيرة وكبيرة شاهدتها في الملعب . وكم كنت أطنب لها في وصف عبد الغني وشجاعته ومهارته .

وفي المساء بعد أن أتناول طعام العشاء كنت أجلس بجوار تلك الجدة الحنونة على وسادة واسعة وأنا أتناول من يدها ما تعطيه لي من الفاكهة اللذيذة . تلك جلسة لا أنساها يا فؤاد مدى العمر . جلسة كلها أحلام وآمال . كانت أشباح اللاعبين وبينهم عبد الغني تمر برأسي مزدحمة فالتذ بصورها ثم اسلم نفسي للكرى فتنطبق عيناي وتثقل رأسي واقعد بجوار جدتي متوسدا قدميها وملتحفا عباءتها السوداء الواسعة .

***

لم يكن عبد الغني من الطلبة الاذكياء العاملين أو المجتهدين في الدرس والمذاكرة بل كان كسولا مشهورا بالغباوة والجهل ولكن

قوته البدنية وشهرته ومهارته في لعب الكرة قد أفسحت له محلا ممتازا بين تلاميذ فصله وجعلت أساتذته ينظرون اليه بعين الاحترام . وكان من بين أساتذة المدرسة أستاذ يدرّس لتلاميذ السنة الرابعة والثانية علم الحساب وهو معلم مشهور بالغباوة والبلاهة ، أبيض البشرة ذو شعر أصفر وجسم نحيف ضئيل . وكان الشائع في المدرسة والدائر على الألسنة ان معلم الحساب هذا يخاف بطش عبد الغني ويهاب جانبه . وكم من حوادث وقعت بين الاثنين كان صغار التلاميذ يحفظونها عن ظهر قلب ويروونها في أوقات الفراغ للتسلية والضحك . وهل أنسى يوم رأيتُ معلم الحساب ميمما حجرة الطعام وبالقرب منه فئة من أطفال المدرسة تصفق وتهلل قائلة :

— عبد الغني هنا أهه . عبد الغني هنا أهه .

والرجل جاحظ العينين محمر الوجه يصرخ مستنجدا بالفراش البدين ليقمع تلك المظاهرة الصبيانية .

***

لقد كانت هيئة عبد الغني ومشيته تنم عن اعجابه بنفسه واظهاره لقوته . فقد أكسب وجهه شيئا من التقطيب الاصطناعي والاشمئزاز المتكلف . فاذا ما رأيته يتكلم ظننت أنه غاضب مكشر الانياب

يريد أن ينقض على محدثه . ولكن سرعان ما ترى ابتسامة ضئيلة أشرقت على وجهه وضحكة خشنة وقّعتها أوتار حنجرته فتعلم حينئذ ان عبدالغني القطب لم يكن غاضبا ولا ساخطا بل كان ماجنا وهازلا .

واذا مشى فرّد يديه مجنحا ، وخطا خطوات متساوية لها صوت غليظ . وكنّا نحن الاطفال – نعجب بهذه المشية ونجتهد في تقليدها ولكن عبثا كنا نجيدها إلا واحدا منا كان اعجابه بعبد الغني كبيرا فاستطاع أن يحاكي مشيته ويقلد صوته ويكسب وجهه النضر الصغير تقاطيب التكلف . فدعوناه بعبد الغني الصغير !

***

وانتهت السنة الدراسية ثم تلتها اجازة الثلاثة أشهر . ثم عادت السنة الدراســية الجديدة فرجعنا الى المدرسة وعدنا الى أنظمتها ودروسها . عدنا الى مقابلة الاصحاب والجري والقفز ، الى حضور حفلات لعب الـكرة والازدحام حول باب الملعب نشرب الفازوزة الحمراء ونرمي بعضنا بقشر البرتقال واليوسف أفندى . أجل عدنا الى حياة العمل السعيد وجددنا نشاطنا الذى كادت تذهب به ريح البطالة الحار .

عدنا فوجدنا المدرسة لم تتغير ولم تتبدل ، فالعبد الاسود بائع

الحلوى لم يزل على بابها يستقبلنا بوجهه الباش وأسنانه البيضاء الناصعة ، وعم مبروك ماسح الأحذية يخبط بيده على صندوقه العتيق . وجدنا الفراش البدين بداخل المدرسة مازال على عهده ممسكا خرطوم المياه يرش الارض والزرع ، والضابط يصرخ صرخاته الهائلة وبيده ورقة العقاب يكتب فيها اسم من تأخر أو من وجد حذاءه غير نظيف .

لم تتغير المدرسة الا في شيء واحد هو نوال عبد الغني الشهادة الابتدائية . لذلك لم نر وجهه المقطب ولم نحظ بمشيته المجنحة ذات الخطوات المتساوية ولم نسمع صوته الغليظ الدال على القوة والبطش . لم يبق أمامنا الا عبد الغني الصغير يذكرنا ببطل المدرسة وحامي كأسها الفضي .

لقد نال عبد الغني الشهادة بمعجزة لا نعلمها والظاهر انه كان يستعمل الغش في الامتحان . لقد تضاربت الاقاويل في ذلك حتى ان معلم الحساب كان شديد التعجب من نجاحه ولكن أمارات السرور كانت مرتسمة على وجهه لزوال كابوسه الاعظم من المدرسة .

ولم يحرمنا عبد الغني طلعته طويلا . فلم يمض شهران على دخولنا المدرسة بعد الاجازة حتى رأيناه في ملعب الكرة مع رفاقه

القدماء يخطر جيئة وذهابا كما يخطر الأسد في عرينه ، فداخلنا السرور والاعجاب وصحنا جميعا مهللين به مرحبين بقدومه . واخترق الفضاء ذلك الصوت الرفيع ، صوت صديقي الصغير يصيح كعادته :

ـ الله يا عبد الغني .

فنظر الينا عبد الغني نظرة الشكر والامتنان . ونطقت عيونه بذلك الشعور الذي كان يجيش في قلبه .

سألنا عن مصير عبد الغني وما هو عمله اليوم فاخبرنا الفراش البدين ـ وهو قابض على خرطوم المياه مصوباً ماءه على شجرة من أشجار الحديقة المزروعة بانتظام بجوار السور ـ ان عبد الغني سيسافر الى بلاد الانجليز ليتعلم ويلعب الكرة . أما الآن فهو بلا عمل يتردد بين فترة واخرى على مكاتب البواخر يسأل عن مواعيد السفر .

ومن ذلك الوقت وعبد الغني يتردد على المدرسة بين حين وآخر ، نراه مرة فى ملعب الكرة وأخرى بجوار حجرة المدرسين يحادث الضابط أو يداعب معلم الحساب

* * *

وفى السنين التالية التى قضيتُها فى المدرسة لم أر عبد الغني ولم

أسمع عنه الا قليلا. وبدأنا رويدا نتناساه .

ثم مضت على أثر ذلك خمسة عشر سنة ، مضت أيها الصديق كما تمضي الخمسة عشر ساعة . مضت بحوادثها وتكفنت بالماضي فاصبحت ذكرى يرمقها الانسان بعينين دامعتين . اليوم احدثك هذا الحديث عن حوادث مضى عليها خمسة عشر عاما أراها ماثلة أمامي كما هي فأنظر اليها نظرة المحب لوجه معشوقته. وكيف لا أكون عاشقا لأيام حداثتي وطفولتي ، الايام التي تذوقت فيها بلا ملل ولا عناء أفاويق السعادة ولمست فيها بيدي نعيم الحياة . هل أنسى أيام السذاجة الاولى – أيام القفز والجري في فناء منزلنا الواسع القديم ، هل أنسى أيام العيد حينما كنت تحضر عندنا وتمضى الثلاثة الايام جميعها في منزلنا . أذاكر أنت يافؤاد بائع البخت الذي كان يملأ جيوبه بدراهمنا . أذاكر يوم ان ذهبنا لأول مرة في حياتنا لمسرح عبد العزيز لحضور رواية « صلاح الدين الايوبي » من فرقة اسكندر فرح ... ذلك وقت مضى ، تلاشت أحلامه وجفت مسرته وخبا وميضه .

* * *

مضت أيها الصديق هذه الاعوام فلم أر أثناءها عبد الغنى الا

ثلاث أو أربع مرات ، إما سائرا فى الطريق أو جالسا فى قهوة « اوبرا بار » . ولكن اهتمامى لشخصه قلّ بعد أن فارقت المدرسة الابتدائية ونضب على أثرها ميلى لكرة القدم وحضور حفلاتها . ولكنني حينما كنت أنظر اليه فكأنما أنظر الى صفحة من تاريخ حياتى الماضية .

واليوم وقد دخلتُ ميدان الوظائف الحكومية رأيتُ عبدالغنى بجانبي وعلمت انه صار له الآن فى مقره أربعة عشر عاما قضاها بين الاربعة حيطان العالية أمام مكتبه الواسع الفخم ومحبرته السوداء الجميلة . لقد تعرّفتُ بعبد الغني فأصبح من رفاقي وزملائى . ولكن تحولت محبتى الاولى واحترامى لشخصه الى اهتمام غريب لملاحظته ومعرفة خبايا نفسه .

سافر عبد الغني بعد نواله الشهادة الابتدائية الى بلاد الانجليز وأمضى في ربوعها اثنى عشر شهراً قضاها فى ميادين الالعاب الرياضية ثم رجع الى مصر حاملا لنفسه أوسمة الفخار والبطولة . ثم تزوج والتحق منذ ذلك الحين بهذه الوزارة ويتقاضى عشرين جنيهاً . ويدّعى أن وظيفته فنيّة وان مركزه من مراكز الوزارة الكبيرة .

لم يتغير عبد الغني عما كان عليه يوم ان كان بطل المدرسة . ولكن اعتراه نحول وهزال من جراء انغماسه في الشهوات واندفاعه في تعاطي المسكرات والاكثار من التدخين. فتقوّست قامته الطويلة وانطبق صدره العريض وانطفأت لمسة عينيه البراقتين فأصبحتا ذابلتين تحيطهما هالة سوداء . ولكنه بالرغم من مظاهر الشيخوخة المبكرة المرتسمة على وجهه والنامية على جسده فهو ما زال محافظاً على مشيته « المجنّحة » ذات الخطوات الغليظة التي ورثها عن حياة الفتوة الاولى .

يأتي عبد الغني كل يوم الى الوزارة بعربة أجرة نظيفة الاثاث . تقف به أمام الباب الداخلي. وينزل منها بعد أن يعطي السائق أجرته. ثم يسير بمشيته المعروفة وبين شفتيه مبسمه الكهرمان الجميل ذو اللون الاصفر الزاهي . فيصطف له بضعة من فراشي وضبّاط الديوان يحيونه تحية رسمية تتجلى فيها مظاهر الاحترام والتبجيل . فيرفع يده بكل تؤدة ويرد السلام باهمال ويزداد تقطيب وجهه ويهتز المبسم بين شفتيه . ثم يُخرج منديله المعطر ويدنيه من فمه ويسعل سعالا كاذباً ، سائراً الهوينا بزهو وكبر . وكثيراً ما يتوقف عن السير ويشير باصبعه الى الضابط الواقف وقفة الاحترام

العسكرية ويناديه بصوت خشن منخفض قائلا :

ــ اسمع ياوله .

فيسرع الضابط ويحيي عبد الغني تحية عسكرية فائقة ويقول بصوت المأمور المطاع :

ــ أفندم ؟

فيسأله عبد الغني بلهجة اذا سمعها غريب عن هذا المكان ما شك في أنها لهجة عنف وقسوة ستتخللها الشتائم وكلمات التوبيخ القاسية .

ويتكلم عبد الغني وعلى وجهه علامات التقطيب والعبوسة غير ملتفت الا الى دخان لفافته :

ــ مافيش بوسطه النهار ده ؟

ــ لا ياسعادة البيه

ــ طيب روح في داهيه

فيعيد الضابط التحية الرسمية ويتقهقر خطوتين الى خلف على الطريقة العسكرية التي علمها لنا معلم الرياضة البدنية في المدارس . ويخطو عبد الغني « بك » الى الامام متجهاً نحو غرفته الكريمة فيسرع أحد الفراشين ويفتح له الباب . فيدخل ويحيي رفاقه بشيء

من اللطافة مع محافظته على تقطيب وجهه ومشيته .

اذا علمت ياصديقي مقدار « البقاشيش » الشهرية التي يوزعها عبد الغني على ضباط الديوان وفرّاشيه زال عجبك عند ماتراهم يبذلون اقصى مجهودهم ليظهروا أمامه احترامهم لشخصه ، وتبجيلهم لمحياه المقطب ، وتحملهم لاهاناته وعنفه ، ومنحهم اياه رتبة البيكوية من الدرجة الاولى المصحوبة دائماً « بصاحب السعادة » . . .

يتجه عبد الغني الى مكتبه بعد أن يصافح رفاقه الثلاثة الذين حرتُ اليوم أحدهم ويجلس على المقعد وهو ينفض غبار لفافته فى المنفضة ويبدأ أحاديثه معهم فيخلط الجد بالهزل والهزل بالجد . ويجمل يهرف بمختلف الاقوال والمواضيع التى تدور معظمها على شخصه وأعماله . يبدأ الحديث قائلا :

— يا سلام على سهرة ليلة امبارح ياناس . . . ؟

فيرفع أحد رفاقه المدعو زاهى أفندى عينيه من على الجريدة ويسأله قائلا :

— شيء جديد يا بيه ؟

— اسكت شربتْ امبارح خمسة وسكي وأربعة كونياك واتنين كوكتيل وبعدين رحت « الدانس » . . . الجديد . . .

كانت ليلة صحيح .

ثم يأخذ يضحك ضحكا عالياً ، فيعود زاهى افندى الى جريدته بعد أن يقول بلهجة متكلفة تتخللها ضحكات قصيرة عليها مسحة التملق :

— اسمح لى أقول لك يا عبد الغنى بك أنك دلوقت بقيت . . . مصيبة من مصائب الزمن . . . حتى الرقص . . يا سلام يا أخي دا انت مخلتشي حاجة في الدنيا معملتهاش .

ويطفىء نائل افندي الرفيق الثانى لفافته ويخلع نظارته فينظفها ثم يقول للجماعة محدثاً إياهم عن نفسه :

— أما أنا فرحت امبارح الضهر بعد ماخرجت من الديوان لمحل النيفة وأكلت أكلة ماتحلمش بها طول عمرك ياسى زاهى .

فيضحك زاهى ضحكة طويلة . ويتكلم عبد الغنى وقد ارتسمت على وجهه علامات الرغبة الشديدة فى اخبار الرفاق عن شىء هام . فيقول :

— ايه يعنى النيفة . . . حاجه وسخة . . . لكن الملوخية ، ايه رأيكم فيها ؟

وحدق ببصره فينا فصاح زاهى وهو يبتلع ريقه قائلا :

— الله . الله

ويتم عبد الغني قوله :

— من مدة كام يوم طبخت لنا الست بتاعتي صحنين ملوخية بفراخ . . لكن أحلف لك بالله العظيم يازاهي انك لو كنت دقتها لكنت أكلت صوابعك وراها من غير ماتحس .

ويجعل يقهقه كثيرا على ماقاله . أما زاهي فيأتي بحركة متكلفة ويقول :

— طيب اعمل معروف يابيه بس بآ . حسن اسة مافطرتش .

فيقهقه عبد الغني أيضاً ويشعل لفافة . ثم يتمطى ويتثاءب بصوت عال . ويسكت الجميع فترة قصيرة من الوقت يقضيها عبد الغنى فى اتمام تمطيه وتثاؤبه ويقضيها زاهي أفندى فى قراءة الجرائد . أما نائل أفندي التصف أعمى فيشتغل أثناءها بمسح نظارته وعينيه كالمعتاد .

وفى هذه اللحظة يُفتح الباب ويدخل رجل طويل القامة عريض الاكتاف يتمنطق بفوطة بيضاء نظيفة على ملابسه الافرنجية ويتعمَّم على طربوشه . له شوارب غليظة وحواجب مهدَّلة على عينيه . يظهر من مجمل هيئته انه من أصل مغولى أو شركسي .

يدخل الرجل بكل أدب واحتشام ويبدأ يُحيّي الجميع تحياته الجميلة . فيلتفت اليه عبدالغني ويعتدل على كرسيه ثم يبدأ الحديث مع الرجل باللغة التركية التي تعلمها منذ الصغر بصوت غليظ خشن. وترتفع في ذلك الحين رأس زاهي أفندي من بين الجرائد ويحدق بوجه عبد الغني تحديق المذهول يسمع رنات تلك اللغة التي لا يعرف منها حرفا واحدا . ويكون في ذلك الوقت قد أرجع نائل أفندي النظارة الى عينيه فيوجه بصره الى من حضر فيجد « محمد أغا » واقفا يحادث عبد الغني . فيقطع الحديث عليهما ويطلب من محمد اغا أن يأتي له بفنجان كبير من السحلب . ويوصيه أن يكثر له من وضع البندق والقرفة . ويطلب زاهي أفندي كوبة من اللبن الساخن مع قطعة من البغاشة المحشوة بالجبن . ويظل محمد اغا ينتظر أمر عبد الغني فتمر خمس دقائق ثم عشرة وعبد الغني يفتل شاربه ويمعن النظر في عمله كأنه يفكر في حل معضلة عويصة . ثم يسعل سعالا مصطنعاً ويخرج لفافة جديدة من علبته الفضية ويشير الى محمد اغا أن يدنو منه . فيهرع الرجل اليه . فيرمي اليه بالسيجارة فيتلقفها الرجل بكل احترام وهو يبتسم ابتسامة اللطف والدعة . ويشكر عبد الغني بجملة طويلة كلها دعوات صالحات . ويُخرج عبد الغني لفافة

أخرى ويشعلها ثم يبدأ طلبه قائلا :

ــ ابعت لي على البيت علبتين لكوم ووقتين بسطرمة وسجق . اوع تتأخر لحسن أرميلك البضاعة فى وشك . . . يالله على بره يا . . ديوز . . . كرته .

فيخرج الرجل وهو يبتسم حاملا فى أذنه تلك الشتائم الدعابية ، راضياً بها كل الرضى مادامت طلبات البك بهذا المقدار .

ولا يكاد محمد اغا بائع السحلب والبفاشة واللكوم والبسطرمة يتوارى خلف الباب حتى يدخل الفراش « أبو الكرم » حاملا دوسيهات العمل فيضعها على مكتب عبد الغنى ثم يخرج . فيتململ عبد الغنى ويقول :

ــ ما فيش راحه أبداً فى الوزارة دى . شغل زى الزفت . . . هو الواحد مش من دم ولحم .

ويفتح الدوسيهات ويوزع بعض الاوراق على زاهى افندى ونائل افندى . ويمضي من الوقت ربع ساعة لا يُسمع فيها الا صوت صرير القلم على الورق ونفخات عبد الغنى الحادة كأنه يقوم بعمل عظيم خطير . ثم ينتشر فى جو تلك الغرفة الواسعة صوت غنائي ضعيف لا يزال يزداد حتى يصير واضحا ثم عاليا .

فاذا بنائل افندي النصف اعمى يُغني مترنمًا : (وانا مالي هيَّ اللي قالتلي . . .) . ثم يترك الغناء بغتة واحدة ويتكلم كأنه يحادث نفسه وهو منكب على ورقة طويلة ممتلئة الارقام :

ـــ ٤٠ جنيهاً كساوي لفراشي الوزارة . . . سبعة جنيهات و ٣٣ مليما أدوات نظافة . . .

ثم يرفع رأسه من على الورق ويصرخ موجهًا كلامه لعبد الغني :

ــ شوف ياسيدى . الكساوى يتكلّف الوزاره ٤٠ جنيه يتدفعها من غير كلام ولا حديت علشان ما تكسى الجماعه الاجلاف دول اللّي ماينفعم الا ورا الجاموسه والا حمير السباخ . . . وتكسيهم بايه ياسيدى . . . بستر وبنطلونات وجزم . . . وأنا اللي عميت في خدمة الحكومة وحفيتْ رِجْلَيَّ لابواب السكرتارية والادارات ترفض طلبي اللي فيه عاوز زياده اتنين جنيه في الشهر . . . اتنين جنيه بس .

فينظر اليه عبد الغني نظرة كلها غضب وامتهان ويقول له :

ـــ وعاوز حضرتك ان الفراشين يفضلم بالجلاليب الزرق والبُلغ ؟ !

فيضحك زاهي افندي ويميل لجهة عبد الغني ويسرّ اليه

ما يأتي بكلام يسمعه نائل افندى :

ـ سي نائل افندى عاوز يافه من بلغ الجماعة الاجلاف دول على دماغه علشان ما يفهم أوامر الوزارة تمام ...

فيجيب نائل افندى وعلى وجهه سيماء التقطيب :

ـ اعمل معروف حاسب فى كلامك ياسى زاهي .

ثم يعود الى عمله فيقول كانه يحادث نفسه :

ـ ٦٥ مليما ثمن فنيك وسوائل مطهرة .

ويصمت برهة من الزمن . ثم يعود الى غنائه متمما أغنيته السابقة مترنما :

ـ (روح اسكر وتعالَ على البهلي .)

ويدخل الفراش (أبو الكرم) ويصيح فى الغرفة قائلا :

ـ سعادة زاهي بك

فيلتفت اليه زاهي ويقول :

ـ ايه ؟

ـ سعادة المدير عاوز سعادتك

فيصفر وجه زاهى افندى ويقوم متظاهراً بالجلد وعدم الاكتراث ويقول للفراش :

ــ طيب روح انت . جى دلوقتي .

فيخرج أبو الكرم ويظل زاهى افندى واقفا ينظف طربوشه وحذاءه ويفتل شاربه .

فينظر اليه نائل افندى ويقول ضاحكا :

ــ انت ياخويا رايح للعروسه والا رايح للمدير ؟!

ــ اهل معروف ياسى نائل ماتهزرش ... أنا فى حالة مايعلمش بيها الا ربنا .

فينظر اليه عبد الغنى ويسأله :

ــ ليه ؟

ــ افتكر ان المسألة اللى حيكلمنى عليها المدير لازم تكون مسأله ...

فيقاطعه نائل افندى قائلا :

ــ آه . مسألة المنشور الوزارى اللى حضرتك خبطت فيه خبطه سوده

ــ دى مش خبطه . دا سهو ...

ويخرج ونائل افندى يقول له :

ــ والله مانى عارف مين فينا اللى عاوز بلغ الوزارة تشتغل على دماغه .

ولا يكاد يتوارى خلف الباب حتى يقوم نائل افندى ويتجه نحو مكتب عبد الغنى ويسأله قائلا :

ـ ايه رأيك يابيه فى سى زاهى افندى ده . ما انتش شايف ان دمه خفيف قوى ... أخف مخلوق على سطح الارض ؟ !

فيقهقه عبد الغنى ويقول :

ـ أنا مش عارف الدنيا ازاى متحملة طور زى ده

فيجعل نائل افندى يضحك ضحكا متواصلا ارضاء لنكتة عبد الغنى وتشفيا من زاهى افندى .

ويرجع زاهى افندى بعد ربع ساعة ويدخل الغرفة كاسف الوجه . فيبادره نائل بقوله :

ـ نقل على زفتى والا على اسوان ؟

ـ لاده ولاده

ـ امال . . ؟

ـ شوية توبيخ وشتيمة . . . حاجة اتعودنا عليها ياسيدى .

فيصيح نائل افندي قائلا :

ـ بالهنا والشفا يا أخي . . . ده شيء مرطّب على الريق خصوصاً انه حضرتك مافطرتش .

ثم يعود الثلاثة ثانيا الى العمل ، عبد الغني ينفخ من كثرة العمل ، وزاهي أفندي ينسخ بعض الاوراق ونائل أفندي النصف أعمى يكلم نفسه تارة ويغني أخرى . وهكذا يمضي الزملاء وقتهم .

***

هذا هو عبد الغني صديقي الموظف ، هذا هو الشخص الذي ينظر الى نفسه بعين الاعجاب والزهو ويعتقد أن الله قد أودعه عقلا ناضجاً ونفساً كبيرة وقوة بدنية هائلة ، فأراد أن يُظهر تلك المواهب للناس ليعلموا ذكاء عقله وصفاء نفسه و يشعروا بصلابة جسمه ، فاتخذ له تلك المشية المجنحة وأكسب وجهه ذلك التقطيب المستمر ورمق الناس بعين الاحتقار والمهانة .

كان عبد الغني منذ الصغر يتطلّع لان يكون عظيما بالرغم من مظاهر الكسل والغباوة المرتسمتين على وجهه. فلما وجد نفسه في ذلك المركز الوزارى البسيط تيقّن أنه نال بغيته وان مركزه هذا مركز الحياة والعمل والبطولة . وما سواه من الناس فعاطل خامل لا قيمة له في الحياة .

يعيش عبد الغني في الحياة عيشة خيالية لا يرى السعادة إلا في الظهور والابهة . يبذل كل ما يستطيع أن يبذله ويضحي

ما يقدر أن يضحيه من مال ومن صحة في سبيل الحصول على كسب هذه الابهة الموهومة .

وكثير من الناس ايها الصديق من يعتقد بمذهب الزميل عبد الغني ويسعى فى سبيل تحقيقه بجهد ومثابرة ويشتريه حتى بماء وجهه اذا اقتضى الحال .....

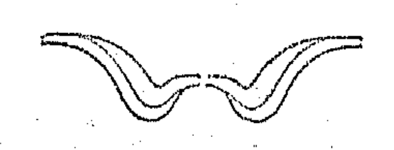
* * *

والآ ن . أرانى مضطراً أن أختم خطابى الطويل الذى شرحت لك فيه بعض مناظر طفولتى وبعض مناظر بيئة الموظفين ، آملا أن تكون الفترة التى صرفتها فى مطالعة هذا الحديث لم تكسبك مللا ولا ضجراً ما ؟

وسلامى اليك أيها الصديق المخلص

فريد كمال

(صورة طبق الاصل)



خالدة سلام باشا

خالة سلام باشا

صدرت جرائد المساء في العاصمة حاوية في عامود الوفيات نبذة كبيرة مجللة بالسواد عن وفاة خالة سلام باشا جاء فيها ما يأتي :

« مصاب جلل ورزء عظيم . توفيت الى رحمة ربها البارة التقية صاحبة الصون والعفاف خالة صاحب السعادة السرى الأمثل محمد سلام باشا من موظفى الحكومة المصرية سابقاً ، ومن أكثر السراه شهرة فى الأعمال النافعة الجليلة . توفاها الله فى قصرها بعزبتها بمدينة جرجا حيث قضت نحبها بعد داء أعيا نطس الاطباء . وسيحتفلون بتشييع جنازتها غداً من محطة العاصمة فى الساعة العاشرة صباحا حيث تصل الجثة بقطار مخصوص فى منتصف الساعة التاسعة . وينتظر أن يكون المشهد حافلا بعلية القوم لمكان الفقيدة وخالها فى قلوب الناس »

واشترى الجريدة كمال بك وكان مع رفقة من صحابه جالسين حول منضدة فى قهوة « الجندى » يشربون القهوة ويدخنون الشيشة كعادتهم . فعثر على هذا الخبر الملفت للنظر وقرأه بكل امعان . ثم صاح فى الجميع ضاحكا ملء شدقيه :

— خبر فى غاية الأهمية أيها الاخوان .

ثم أخذ يقهقه والكل ينظرون اليه بدهشة . ولما أوشك أن ينتهى قال بلهجة الساخر :

ـ لقد توفيت خالة سلام باشا . . ! !

فبادر أحد الجالسين وسأله مندهشاً :

ـ وهل فى ذلك مايستوجب الضحك والسخرية ؟

ـ لم أسمع فى حياتى بوجود هذه الخالة مطلقاً . والظاهر انها لم تكد تظهر فى عالم الوجود حتى بادرها الموت فأخفاها الى الابد .

ثم عاد الى الضحك ثانياً . وتكلم أحد الجالسين وكان يسمى رفعت بك وقال موجهاً كلامه لكمال بك :

ـ ولكنى سمعت بهذه الخالة

ـ هذا عجيب جداً

ـ يحق لك أن تعجب لان خبر هذه الخالة كان خافياً عن الجميع . كان سلام باشا يحاذر أن يعرف الناس من أمر هذه الخالة شيئاً .

ـ ولم ذلك ؟

ـ لانه يخشى الفضيحة والعار اللذين يلحقانه اذا علم الناس أن خالة معدمة تكاد تستجدى لفقرها ، تسكن عشة مهدمة فى

ضواحي جرجا .

فانتبه الجميع وانصتوا بدهشة لحديث رفعت بك . وتكلم كمال بك قائلا :

ـ اذاً فالقصر الذي توفيت فيه الفقيدة والتي نوهت بذكره الجرائد حديث خرافة ؟

ـ بالطبع حديث خرافة . لقد كان يعلم سلام باشا أمر هذه الخالة المسكينة وما وصلت اليه حالتها من الفقر والبؤس ولكن قلبه لم تطرقه الرحمة من أجلها . فقد سمعتُ من مصدر موثوق به انه قد تبرع لها في الأعوام الاخيرة فقط بمبلغ خمسين قرشاً تتقاضاها من ناظر الزراعة لأكلها وملبسها . كان ينكر صلته بها وكانت المسكينة تود التقرب اليه بكل وسيلة لتستجديه شيئاً بحق القرابة التي تربطهما . ولكن الباشا كان يكره تلك القرابة بل ويمقتها . لانه يعتبرها الصلة الوحيدة الباقية التي تصله بماضيه العابس المتجهم ، ايام كان يرتدي الجلباب الازرق المفتوح الصدر واللبدة الخشنة ، أيام كان يقود وراءه الدابة ليذهب بها الى المرعى أو يحمل على رأسه قصعة الطعام لوالده في الغيط .

ـ ما أعجب ذلك يارفعت بك . ومن أين علمت كل هذا ؟

ـ علمتُه من أحد أفراد العائلة التي تربي سلام باشا في رعايتها .

لقد كان رب هذه العائلة التي شملت سلام باشا بعنايتها رجلا شهماً كريماً تكفّل بتربيته وتهذيبه . فارسله مع نجليه الى احدى مدارس القاهرة وصرف عليه حتى نال الشهادة الابتدائية . ولما لم يفلح في الثانوى توسط له سيده في الالتحاق بوظيفة من وظائف الحكومة. وماكاد يستقرّ به المقام ويرى في افقه بشائر الرّقي حتى تحوّل من شاب وديع مطيع الى شخص عنيد متكبر . وساعده الحظ فارتقى في المناصب العالية بخطى سريعة زادته كبراً على كبر. وظهرت شخصيته ونيّاته جلية واضحة . فنسى كل ما يربطه بالماضي حتى بالشخص الذي رباه وعلمه وكان سبب نعمته . أجل أيها الاخوان لقد كفر سلاّم بالنعمة وكثيراً ما يكفر بها حتى السّاعة . كلنا نعلم أخلاق الرّجل ونفسيته فلا عجب بعد ذلك اذا كنتُ اسمعكم عنه اليوم أمثال هذه القصص .

ــ ألم يكن له أقارب غير هذه الخالة البائسة ؟

ــ كانت هي البقية الباقية من أقاربه . فقد انقرضت اسرته منذ زمن بعيد . وهذا سر كرهه لهذه الخالة وعدم اعترافه بها .

ــ ولكنه اعترف بها اخيرا .

ــ يعترف بها في الممات . هذا شيء آخر

ــ وما معنى ذلك . انه المجنون بعينه

ــ انه يفعل ذلك في سبيل الأبهة والعظمة . ان القرش الذي كان يبخل به عليها في حياتها سيصرف أضعاف أضعافه مئات وآلافاً من المرات عليها في موتها . وغايته من ذلك السعي وراء العظمة الكاذبة التي اعتاد ان يجري خلفها طول حياته والتي لا يعرف سواها لاسعاد نفسه في هذه الحياة . أليس ذلك المأتم الكبير وتلك الجنازة المهيبة وسيلة من وسائل النشر والاعلان عن النفس ؟ الا يكفي ان يكون لدى الباشا في المأتم عظماء القطر ووجهاؤه والطائفة العالية لموظفي الحكومة يقدمون اليه تعازيهم الحارّة ويشاركونه في مصابه ؟

فقهقه كمال بك وقال :

ــ الا قاتل الله هذا المجنون اللّعين . كان بودّي ان احضر ذلك المأتم لاشاهد ما فيه من البدع .

ــ ولِمَ لا تذهب . الا تعرف الرجل ؟

ــ كما تعرفه انت

ــ اذاً ما الذي يمنع ذهابك ؟

ــ سأسافر غداً الى العزبة في امر هام .

فتكلم احد الجالسين وقال :

ـــ اذاً ترسل له برقية

ـــ هذا ما سأفعله

وتكلم رفعت بك قائلا :

ـــ امّا انا فسأذهب واملّي مخبركم بشيء ممّا اراه .

وصفق كمال بك مناديا خادم القهوة . وطلب منه ورقا ومحبرة وقلماً . فلما احضر له الخادم ماطلب شرع يكتب البرقية. وقال وهو يفكر :

ـــ لا أدري ما الذى أ كتبه تعزية لهذا المأفون

فقال رفعت بك :

ـــ اختصر يا أخي. اكتب مثلا « انا لله وانا اليه راجعون » فقط

ـــ لا يكفي هـذا مطلقاً يارفعت بك . ان الرجل يعرفني معرفة تامّة . أتريد ان يحتقرني ويهزأ بي على مرأى ومسمع من الناس ، واصفاً اياي بالبخل . يجب ان ا كتب برقية لا يقل عنها عن ثلاثين قرشاً مثلا . . .

ثم التفت الى مصطفى بك وقال :

ـ أليس لديك جمل حزينة مؤثرة عليها على لاعزّى بها هذا الرجل ؟

وكان حسنى بك مشهوراً فى الجماعة بانه شاعر . فنظر الى كمال بك نظرة طويلة وهو يفكر . ثم قال :

ـ أتريد نثراً أم نظما ؟

ـ أفضّل النثر ، النثر السّهل البسيط لان الرجل كما تعلمون جاهل وغبىّ .

ـ اذن اكتب

وبدأ حسن بك يملى على كمال بك :

كل ابن انثى وان طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

ـ ماهذا يا أخى . أريد نثراً كما تعلم

ـ ولكن هذا مقدمة فقط . اننا نريد أن نؤثر على الرجل بمثل هذه المقدمات الفصيحة . . . اكتب . . .

« قرأت اليوم بمزيد الحزن والالم خبر ماحلّ بكم من الرزء العظيم الفادح بوفاة البارة الكريمة المغفور لها خالتكم العزيزة وعميدة منزلكم . فتنازلوا ياصاحب السعادة بقبول تعازىّ الحارّة القلبية . منحكم الله من لدنه جميل الصبر وابقاكم الله مدى طويلا .

وتضمك فقيدتكم العزيزة المحبوبة برحمة واسعة .

الحزين المتألم

كمال »

ــ براڤو حسنى بك . ولكن هذه برقيــة تساوى أربعين أو خمسين قرشاً على ما أظن

ــ لابأس

وكان فى الجماعة شخص يدعى ناصر بك لم يكن رأى سلاّم باشا أو سمع عنه قبل هذه المرّة فشاقه كثيرا ان يعلم عنه شيئاً أكثر مما سمع . فسأل كمال بك مستفهما :

ـــ وما شكل هذا المأفون الغبىّ . وكم يبلغ من العمر ؟ ألا بربك زدنا ايضاحا عنه .

فتكلم كمال بك بعد ان أخرج علبة اللفائف من جيبه وقدّم لكل من رفاقه واحدة :

ـــ سلام باشا ياصديقى رجل ضخم الجسم طويل القامة ، بشرة وجهه سمراء تقرب من السواد مشربة باحمرار دائم من فرط ادمانه على الخمر . له عينان واسعتان محمرتان تحيط بهما هالة زرقاء بنفسجية تدل على ما يعانيه جسمه من تأثير السهر والانغماس فى الملذات البهيمية .

دميم الخلقة ، على وجهه آثار الجدري تزيده قبحاً على قبح . بلغ من العمر الخامسة والخمسين ولكنه مازال صلب العود لا يعرف للشيخوخة على نفسه سلطاناً . يسلك في الحياة طريق ابن العشرين الاهوج الطائش . يبخل اذا مابسط العقلاء أيديهم ، ويبذر اذا ما استنكروا الاسراف . جاهل غبي لايعرف في العالم الا الابهة الكاذبة والعظمة الخاوية ، يسعى اليهما بكل مالديه من وسائل النفاق والتملق والخيانة والكذب والاسراف . دخل سلك الموظفين - بعد ان فشل في التعليم الثانوي - بتوصيات عديدة من ولي نعمته . وارتقى في المناصب بكل ما أتاه من دناءة ومداهنة فنال الرتب الرفيعة والمرتبات الضخمة ، بينما كان يتناول من الطرق الاخرى غير الشريفة مايفوق مرتبه أضعاف أضعافه . فاشترى الاطيان وبنى القصور وصار من أهل النعمة الموفورة والثراء المتدفق . وأخيراً كُشف عن أمره فطرد من الحكومة طرداً شنيعاً ولم ينفعه تزلفه وتعريض شخصه لاكبر الاهانات في سبيل الدفاع عن نفسه والمحافظة على مركزه ، حيث كان المال الوفير يتدفق عليه من كل جانب . خرج من الحكومة بالرغم منه بعد ان شبع منها مالا وفيرا واسما عظيما . وسرعان مانسي الناس أمر فضيحته فلم يمض على حادثته وقت قصير حتى ظهر اسمه في مصر ثانيا مقرونا بالتبجيل والتعظيم .

وهاهو اليوم يعيش في قصره ممتلىء الجيب ، عظيم الجاه ، كبير اللقب .

***

وكان المشهد فخما حافلا بعلية القوم وبعشرات الفقهاء والصبيان والمولوية أصحاب اللبد الطويلة ، والرجال حاملي المباخر ومشايخ الطرق بعماماتهم البيضاء وملابسهم الخضراء ، والخدم المختلفي الدرجات . يتقدم الجميع جملان عليهما أربعة صناديق مملوءة بالفاكهة والفطائر وهو ما يسمونه (بالكفارة) . وكان سلام باشا يلبس الردنجوت الاسود والحذاء اللامع الجديد الذي اشتراه خصيصاً لهذا المأتم ، متظاهراً بالحزن والألم . يتكلم بصوت ظاهرة فيه نبرات التكلف المقوت ، يحدث لمن ينصت له ما ثر الفقيدة العزيزة ووقع مصابها في قلبه ، وكيف كان يحترمها ويودها وكيف كانت تعطف عليه عطف الأم الحنونة على ولدها . هكذا كان يروي سلام باشا هذا الحديث لمن يسير معه في الجنازة بينما كان معاون الدائرة يُسِرُّ لاحد رفاقه قائلا :

— لو كان الباشا وهب للفقيدة العزيزة عُشر ما يصرفه الآن على مأتمها لكفاها غائلة البؤس طول حياتها ... لقد أمرني الباشا بملء الاربعة صناديق التي يحملها الجملان بالفاكهة والفطائر الغالية الثمن والممتازة بندورتها والتي لم تكن تحلم بها في نومها تلك الخالة الكريمة ،

لتوزع على الناس ، فقراء كانوا أو غير فقراء رحمة عليها وتخليداً لذكراها . . .

*
* *

وكان المساء . فاضاءت المصابيح الشارع الذى كان منزل الباشا كائناً فيه . وقد أكثروا منها وأطالوها حتى بلغت مدى بعيداً . وأصبح المار فى الشارع يظن نفسه أنه فى ليلة من ليالى الافراح لكبار الموسرين المسرفين . أما السرادق فكان فخما مشيد الجوانب بأحسن الأقمشة ، مؤثثا بالطنافس الغالية وبالمقاعد الثمينة المريحة ، ومنارا بالكهرباء بشكل جميل ، يرن فى ارجائه صوت أشهر الفقهاء المجودين ، مزدحما بالناس ازدحاما هائلا سُرَّ له سلام باشا سروراً كبيراً . وكان الهرج والمرج يسودان جهة المطبخ والجهة المعدة لتناول الطعام ، لأن الباشا أمر باعداد الموائد وبتقديم أشهى الاطعمة وأحسنها للأخصاء من رفاقه وللعظماء من أصدقائه . وكان يذهب بنفسه — حينما يفرغ من الترحيب بالمعزين — الى حيث الموائد مصطفة ومعدة للطعام فيصرخ فى الخدم صرخاته العالية آمراً هذا وناهياً ذاك ، طالبا هذا الشيء ورافضا ذلك . ثم يعود الى مكانه الاول فى السرادق يطوف على الناس ، متكلفاً

الحزن والتنهدات الحارة ، راوياً لهم مناقب الفقيدة وحادثة موتها وكيف استقبل ذلك النبأ المؤلم بصبر كبير يُغبط عليه .

ولما ختم المجود سورته وخرج الجميع واحدا واحدا وهم يسلمون على الباشا ويواسونه خلا السرادق بعد ذلك من الجميع الا من سلام باشا نفسه وبعض توابعه وخدمه .

انتحى الباشا ركنا من الاركان ووضع رجلا على أخرى ، وجعل يهوّي بمنديله على وجهه ليجفف عرقه . ثم أخذ ينفخ وهو يردد :

— أعوذ بالله من هذا التعب . لم أكن أعلم أنني سأتكبد كل هذه المشقات .

وكان بجوار الباشا احد محاسيبه ، شيخ متملق قذر الهيئة ، له شارب صغير وذقن مبعثرة الشعر . فقال وهو يدعك يديه ببعضهما :

ـ حقا ان سعادة الباشا قد تعب كثيراً . ولكن لولا هذا التعب لما صار المأتم بهذه الفخامة والابهة . ان جميع الناس بين صغير وكبير تتحدث عما شاهدته ولاقته اليوم .

وتكلم الباشا مجيبا وقد زادت نفخاته وآهاته :

ـ اقسم لك ياشيخ عبد النبي ان النوم لم يطرق جفني الليلة الماضية . ولم اجد لدى متسعا من الوقت لاجلس برهة على مقعد طول

هذا اليوم لاستريح قليلا . قد شاهدت بنفسك الباشوات والعلماء الذين جاؤا الليلة . اكان يجدر بي ان اتركهم وشأنهم ؟

— كلا . العفو . هذا لا يصدر من سعادتك .

— لقد كنتُ اطوف عدة مرات لأبلغهم شكري على حضورهم . وكنتُ اذهب بنفسي الى المطعم لأتفقد الطعام ونظام الموائد . أكان يجدر بي أن اعتمد على شخص آخر ؟

— مستحيل يا باشا مستحيل . سعادتك تهتم بهذه الامور دائما بنفسك .

ثم تثاءب الشيخ عبد النبي واتم كلامه قائلا :

— اقسم بالله العظيم وبالنبي الكريم وبالرسل جميعا أنني لم أذق في حياتي اشهى من طعام الليلة . ولم ار مطلقا مأتما جامعا لكل ما يجب ان يكون سوى هذا المأتم . ان روح خالتك المرحومة ترفرف على رأسك الساعة شاكرة لك حسن صنيعك وقيامك بالواجب المقدس نحوها .

— لم افعل الا الواجب يا استاذ

وتثاءب الشيخ مرة أخرى ثم قام واستأذن في الذهاب . فمنحه الباشا يده واعطاه سراً مبلغا من المال نظير ما فاه به الساعة من آيات الثناء والمديح .

وتمطى الباشا قليلا ثم صرخ مناديا عزيز أفندى ، وهو شخص يبلغ الثامنة والثلاثين ، نظيف الملبس ، يقوم بوظيفة سكرتير خاص للباشا . فلما دنا منه عبس الباشا فى وجهه وقال :

ـ لم ترُقْ فى عينى الجنازة مطلقا . انى مستاء منك للغاية لاهمالك

ـ اهمالى !؟ ولكن الجنازة كانت فى غاية الابهة والعظمة .

ـ كذاب .

ـ انها كانت تبلغ ثلاثمائة متر طولا . اما عرضها فبعرض اكبر شوارع العاصمة اتساعا . لقد اوقفنا الترام على كل الخطوط الرئيسيّة تقريبا حتى تعطلت المواصلات مدّة طويلة . ولم نسمح لاىّ عربة او سيارة بمزاحمة الجنازة او اختراقها . ألم تشاهد سعادتك المولوية ؟ اننا كنا نجمعهم من التكايا بالعشرات وقد بلغوا مائة وخمسين . والفقهاء الذين فى المقدّمة ، لقد كانوا أنظف عميان القاهرة جميعها ويبلغ عددهم خمسين . ألم تشاهد سعادتك هيئة الرجال أصحاب القماقم والمباخر ؟ كانوا مائة وخمسين . وقد كلفونا مبلغاً لا يستهان به . اشتريتُ لكل واحد منهم فوطة جديدة من خان الخليلى . وأوصيت الاسطى عبده سواق الاتوموبيل ان ينظف

بدلهم بالبنزين . وامرت الشيخ خليل أن يأخذ عطرا يبشهم للمكوى . انهم كانوا ياثلون البهوات ياسعادة الباشا نظافة وهنداماً . اما خدمكم وتوابعكم فسعادتك تعلم اننا اشترينا لهم جميعا الملابس والاحذية والمراكيب الجديدة . كانت هيئتهم ملفتة للنظر . اقسم لك ياسعادة الباشا انني كنت أرى الناس على جانبي الطريق صامتين خاشعين من هيبة الجنازة ، مذهولين مما يرونه من عظمة الأحتفال وحسن نظامه وابهته . وكانوا يتساءلون دائما عن صاحبة الجنازة فكنتُ أُجيبهم بصوت مسموع « هذه جنازة المرحومة خالة سلام باشا » فكانوا يترحمون عليها رحمات صادقة . الم تسمع سعادتك بأذنك دعاء الفقراء لك وهم يتناولون الفاكهة والفطائر التي كانت توزع عليهم بسخاء وكرم من صناديق (الكفارة) في مقدمة المأتم ؟ لقد كان الدعاء يصم الآذان ويتغلب على ترتيلات الفقهاء .

وكان الباشا يسمع ذلك باعجاب شديد وزهو عظيم . ولـكنه عبس وصرخ منادياً سكرتيره عزيز افندى قائلا :

— والبوليس . اين كانوا يا أبله ؟ أليس من العار ان لا تحوي جنازة المرحومة خالتي سوى اثنين من الفرسان واربعة من المشاة !

— اقسم لكم ياسعادة الباشا انهم لم يصرحوا لى باكثر من ذلك

— لم يصرحوا لك !! . ولكنهم صرحوا لجنازة والدة عبد الكريم باشا بعشرة من الفرسان وعشرين من المشاة

— سعادتك تعلم ان عبد الكريم باشا كان . . .

فقاطعه سلام باشا قائلا :

— اعلم انك مهمل قبل كل شيء ... ياللعار . جنازة خالتي لا يكون فيها عدد موافق من رجال البوليس يليق بمركزي الآن ومركزي الحكومي في الماضي . . خالتي انا . . . أنا الذي تعرفني الوجهاء وعظماء القطر . . ما الذي سيقوله الناس عني ؟ سوف اسمع العجب . وكل هذا منك .

— سوف تسمع كل أطناب ومدح

— ولكنني أعلم ان هذا الخطأ ستتلافاه في الغد

— مرني بما تشاء

— ستنشر الجرائد غدا نبذة عن جنازة المرحومة فيها وصف مفصل عنها وعن اسماء الوجهاء والعظماء الذين ساروا فيها وعن عدد رجال البوليس الذين كانوا يحفون بالنعش .

— وما عدد رجال البوليس الذي تريد سعادتك ان يكون في الجنازة . ؟

ـــ أريد أربعين من المشاة وثلاثين من الفرسان

ـــ سيكون ذلك

ـــ ولك ان تحشو النبذة بكل مايهم عن فخامة الجنازة والمأتم وفاخر المأكولات ومشاهير الفقهاء وغير ذلك . اعط الجرائد عن سعة ولا تبخل

ـــ سيتم كل شيء على ماتريد

وتثاءب الباشا وقد صمت برهة قليلة ثم تكلم بصوت اعتيادى منخفض :

ـ هل أعطيت العربون للمغنية ؟

ـ أجل يا سعادة الباشا . ولكن هل فى عزم سعادتك اقامة الحفلة ؟

ـ بالطبع وما المانع . لا أريد ان أغير شيئاً من عاداتى . لاأريد ان الغى ليالى الحظ التى أقيمها دائما . . . أما ماهو لازم للمأتم فأنت تعلم كل شيء . أتريد ان أعيد عليك الامر ؟

ـ انى عالم بكل شيء

ـ ولكن لابأس من اعادة الكلام للناس الاغبياء أمثالك . بعد انقضاء ثلاثة أيام المأتم لابد من ترتيب الفقهاء كل ليلة هنا فى

المنزل وهناك في القرافة . . . كل ليلة حتى يوم الاربعين . وفى ليلة الاربعين سيُقام السرادق كما هو مُقام الليلة وسيُمد الأكل كما هو مُمد الليلة . . . كل هذا اكراما للمرحومة وقياما بالواجب أمام الناس . . . أفاهم ؟

ـــ فاهم ياسيدى

***

وفي مساء اليوم التالى كان الشيخ عبد النبي جالسا بجوار الباشا يقرأ له النّبـذة الخاصة بالجنازة والمأتم التى دبجها السكرتير الخاص عزيز افنـدى . وكان الباشا منصتا كل الانصات يومىء برأسه مصدقا لما جاء في النبذة . وكان فيها وصفٌ شائقٌ للجنازة واسماء من ساروا فيها من عظماء البلد ، وكيف كانت الصدقات توزع على الفقراء وكيف كان الناس يبكون على الفقيدة الراحلة ويطلبون لها من الله الرحمة والرضوان ، مثنين على همة الباشا الذى قام بواجبه حق قيام . فلم تفته صغيرة ولا كبيرة حتى أداها ... وقد صدرت النبذة بما يأتى :

المشهد الرهيب

« جاءنا والجريدة ماثلة للطبـع من مندوبنـا الخاص هذه النبذة فآثرنا نشرها في الحال لأهميتها ولما لصاحب السعادة المفضال

محمد سلام باشا من الشهرة الواسعة والفضل الكبير » .

ثم جاء الوصف الطويل حاويا لعشرين اسما مضافا اليها لقب صاحب المعالي فصاحب السعادة . ثم وصف رجال الشرطة وعددهم . فقرأه الشيخ موجها قوله للباشا :

« وكان يحف بنعش الفقيدة الجليل ثلاثون من الفرسان وأربعون من المشاة »

فصاح الباشا مسرورا :

— هذا حقيقي . انهم لم يعارضوا في منحى هذا العدد . ولو طلبتُ أكثر لما عارضني أحد .

فاجاب الشيخ عبد النبي وهو يدعك يديه :

— سعادتك أشهر من نار على علم . وهل كانوا يبخلون عليك بما طلبت وقد خدمت الحكومة خدمات صادقة يشهد بها كل انسان .

— ان جنازة والدة عبد الكريم باشا لم يسرْ فيها الا ثمانية على ما أظن .

ثم عاد الشيخ يقرأ . فجاء في النهاية ما يأتي :

« وكان الباشا حفظه الله باد عليه التأثر والأسى مما جعل

الشكل يواسونه بثواب مضوفة ... »

— هذا حق . هذا حق . سعادتك كنت في غاية التأثر .

— وماذا نفعل يا أستاذ . هذا أمر الله .

***

بينما كان الباشا ورفيقه يتحدثان وهما يقرآن نبذة الجريدة كان شيخ هرم لايكاد يحمل نفسه جالسا القرفصاء بجوار عتبة باب القصر وهو يدخن لفافة منحه اياها معاون الدائرة الذى كان على مقربة منه . كان هذا الشيخ الهرم من خدم الباشا في عزبته زمنا طويلا ، رجلا قد ذبلت عيناه وابيض شعر ذقنه ، يلبس الطاقية البيضاء ذات العمامة ويرتدى الملابس الريفية .

وتكلم بعد صمت طويل بصوت ضعيف ونغمة واهنة قائلا للمعاون :

— والله ياسيدى لقد شاهدتُ المرحومة وهى تبيع « زعازيع القصب » للاطفال في ضاحية جرجا فلا أدرى لماذا يقيمون كل هذا من أجلها . . . أأكون قد خرفت لا أعلم ما أقول أو عميت أرى مالا يراه الناس ؟

فدنا منه المعاون وأسرّ اليه قائلا :

— كلا . فانت على حق يا عم بيومى . ولكن الباشا يريد ذلك وارادة الباشا فوق العين والرأس

انتهى

آراء

الكُتّاب الافاضل في كتابيْ

الشيخ جمعه

و

عم متولي

وهما أول وثاني مجموعات المؤلف القصصية وكل منهما
يحتوي على عدة قصص مصرية عصرية على نمط مؤلّفه الثالث
الشيخ سيد العبيط واقاصيص اخرى

ملاحظة : الكتابان السالفا الذكر يباعان مع هذا الكتاب في المكاتب
الآتية : « السلفية » بباب الخلق بشارع الاستئناف ، و « الهلال » و « العرب »
و « سركيس » بشارع الفجالة ، و « الوفد » بشارع الفلكي ، و « التجارية »
بشارع محمد على ، و « مصر » بشارع الدواوين بعمارة مطبعة بنك مصر ،
و « هندية » بالموسكي وشارع المناخ ، و C. M. S. بشارع قصر النيل .

وثمن الكتاب خمسة قروش صاغ

ننشر فيما يلي نبذاً مما كتبه بعض أفاضل الكُتّاب من علماء مستشرقين ومحررين صحفيين وأصدقاء خصوصيين عن مجموعتي « الشيخ جمعه » و « عم متولي » لفتا لنظر القارىء الكريم الى هذين الكتابين . وقد اقتصرنا على نشر مالم ننشره في ذيل كتاب « عم متولي » .

***

كتب الاستاذ المستشرق « اغناطيوس كراتشقوفسكي »

العلامة الروسي عضو مجمع العلوم والآداب في لينين غراد واستاذ

الآداب العربية في اكبر جامعاتها عن كتاب « الشيخ جمعه » :

لينين غراد — روسيا في ١٨ أيار سنة ١٩٣٥

. . . . . قد قرأت ماجادت به قريحتكم الوقادة هذه المرة بكل امعان وتدقيق ورأيت فيه صفحة جديدة من الآداب العربية الحاضرة ما كنت أتصور امكان ايجادها وقت زرت مصر المحبوبة من مدة خمسة عشر سنة . ولكم الحق كل الحق فيما كتبتم في المقدمة من سيركم في الطريقة الجديدة غير المطروقة من قبل . . .

. . . . وقد شممت رائحة لنشوء الاقصوصة العربية الوطنية وقت قراءتي « لما تراه العيون » من أول وهلة وتكدرت كثيراً من انقطاع هذه السلسلة واختطاف صاحبها بيد المنية القاسية . . . .

. . . . . ومن الاقاصيص التي أعجبتني أكثر من الكل في هذه المجموعة هما « الاسطى شحاته » و « مشروع كفافي افندي » وقد رأيت فيهما حياة منعكسة أمام عيني تخيلي كما أراها بعيني جسمي . وما أريد بذلك

ان أعظم فضل الاقاصيص غيرها فكلها جميل في بابها وان كان في بعضها مسحة زائدة مما يسمونه Sentimantal كما في الاقصوصة « التفات ولواحظ . . . . . »

اغناطيوس كراتشقوفسكي

*
* *

وكتب حضرة الاستاذ السابق الذكر عن كتاب « عم متولى » :

. . . . أتممت اليوم قراءة الكتاب « عم متولى وقصص أخرى » . . . وكان هذا الولى أنعش للنفس الظمآنة من الوسمى الذى سبقه فى « الشيخ جمعه » . ومما أعجبنى فى هذا الكتاب الثانى هو وحدة الاسلوب والسياق واتفاق الاجزاء في القصص كلها . وليست هي في الحقيقة الا الاشخاص من الصورة الواسعة الكبيرة التى تستحق التسمية برجال القاهرة الحاضرة . ومن ذلك تنتج مزية خاصة لكتابكم . ليست القصص كلها الا درسا بسيكولوجيا تحليليا لاحوال النفس وتطوراتها فى الشخص الواحد الذى هو بطل القصة مع بعض الدرس للاشخاص المجاورين له فى البيئة . وهذه المزية سببه قلة الحركة في القصص وان كانت فيها الاجزاء تؤثر فى النفس تأثيرا كليا كاجزاء الرواية المحزنة التشخيصية ، كمثل موت بطل القصة فى « مهزلة الموت » أو المحاكمة البيتية فى « الحاج فيروز » أو الجزء الاخير من « الوظيفة أخيراً » وهى على ظنى من أحسن القصص فى هذه المجموعة على الاطلاق . . . . .

. . . . وقد رأيت فى كتابكم هذا تقدما ظاهراً فى قلة التأثير بمذهب الرقة المصطنعة Sentimental بنسبة الى المجموعة الاولى وليس لها مسحة الا فى القصة الاخيرة « مفلس » .

وما تأسفت قليلا عند قراءتى لمجموعكم النفيس هو قلة استعمال لغة المحاورة وهذا شيء يضر أحيانا بالمذهب الواقعى ويضعف قوة التأثير . . .

١٣ / غسطس سنة ٢٥

وكتب الاستاذ « المستر كرنكو » العلامة المستشرق الانجليزى

عن كتابى « جمعة ومتولى » :

قرأت منذ مدة فى الكتابين فى يوم واحد من أجل اللذة التى وجدت فى القراءة . فأهنئكم باختراع فن الأقصوصة . كل قصة كالتصوير الشمسى تصور بالحقيقة الحياة فى مصر اليوم . وان كان رأيى صحيحا أظن قصة عم متولى أحسن قصة فى المجلدين . فكأنى أحب بنفسى هذا العم متولى مع ذكره لأيام عزته فى عسكر المهدى ورجائه فى رفعة الاسلام بواسطته وان لم يكن الا حلما لذيذا . وكذلك تلذذت بقصة الشيخ جمعة الذى هو كالبقية من الازمنة الماضية فى هذا العهد الحديث . ونرى فى سائر الاقاصيص كيف الناس فى كل قطر فى العالم سواء فى قوة وضعف خواطرهم . لاشك ان تصانيفكم تستحق ترجمة الى لسان أوربى ولو كان لدى الفرصة لفعلته . . .

يناير سنة ١٩٢٦

*
* *

وكتب الاستاذ الدكتور كامفماير Dr. Kampffmeyer

العلامه المستشرق الالمانى ورئيس الجمعية الالمانية للمعارف الاسلامية

ببرلين عن كتاب « الشيخ جمعة » :

برلين فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥

. . . . . فلقيت فيها (فى القصص) ما راقنى للغاية من الاوصاف الدقيقة للبيئة المصرية وللأخلاق الاشخاص الذين تعرضونهم للقارىء . ولما كنت أحب وطنكم العزيز وأتمنى رقيه وتقدمه ومستقبلا سعيدا باستقلاله ، رحبت ترحيبا قلبيا بمعالجتكم ذلك الاسلوب من البلاغة المصرية وهو المذهب الواقعى

الذي من شأنه أن يهذب النفس ويرقى الخلق . وكان لكل من تلك الاقاصيص تأثير خاص في نفسي ، لاأستطيع أن أصف لكم كل ماتلذذت به من الفكاهة والاستمتاع الفكري بل ومن تحليل النفس والحكمة الشيقة . ولما انجزت مطالعة قصصكم استمرت في مخيلتي صورة الفتاة « التفات » وهنأت عبدالسيد باختياره لتلك البنت السمراء الساذجة المخلصة على منافستها اواحظ ، البيضاء الفاتنة العارية من مزايا القلب والخلق . . . .

. . . . واني ان شاء الله سأدرج في مجلة مدرستنا للألسن الشرقية في برلين كلمة عن كتابكم وسأوصي تلامذتي ومواطني بدرسه ومطالعته . . . .

*
* *

وكتب الاستاذ المستعرب Gibb العلامة المستشرق الانجليزي

عن كتابَيْ « جمعه ومتولى » :

. . . . . قرأت بعض قصص منهما مستعجلا مستطعما متلذذا مستحليا . وقوى ذلك عزمي على اعادة قراءتها واتمامها على طريقة يمكنني معها التمتع بدقائق عباراتها . وارجو أن تسمحوا لي ، ولو كان في ذلك صبغة من الجرأة ، أن أعرض لجنابكم تهنئاتي الخالصة على نجاحكم فاني أضيف نفسي الى حلقة قرائكم الواسعة التي تشتاق الى صدور المجموعة الثالثة . . . .

٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥

*
* *

وكتب الاديب الفاضل الاستاذ مصطفى راشد بك رستم

رئيس الجمعية المصرية بباريس عن الكتابين :

ان «عم متولي» زميل بمعنى الكلمة . واني على الاخص أجد فيه زمالة لذيذة جدا لاني أشعر تمام الشعور عند مصاحبته بكل مايقول وما يحكي . وان هذه الصفحات من الحياة تذكرني كثيرا بطفولتي وكذلك بشبابي الاول وبمن كنا نراهم ونسمعهم ونجالس اليهم ومن نزور ومن نزار ومن يحكى لنا عنهم. وكذلك هي الحياة الحاضرة من نواحي كثيرة . واني لاجد في الوصف دقة وأرى من قوة الملاحظة شيئا عظيما . فيخرج القارىء من ذلك وهو متصور ذلك الشخص أو الشيء الحقيقي والخيالي مما تصويراً تاما ...

(باريس في ١٠ يناير سنة ١٩٣٦)

*
* *

وكتب صديقنا الاديب الفاضل الاستاذ محمد افندي محمود شاعر الفيوم قصيدة عصماء نقتطف منها الابيات الآتية :

قصص تيمور

ترفه عن كل قلب حزين   اذا لم يرفهه المدمع
وتطرب كل فؤاد طروب   كأن السلاف له تترع
ويلتذ منها حكيم النهى   كما التذ بالحسن مستطلع

ومنها :

عرضت بها «مصر» في صورة   كأحسن ماصور المبدع
وفصلت في قصص حلوة   كما فصل الدر مستجمع
حياة لنا قد جهلنا بها   ونحن على طبعها نطبع
ويدفع بالشعب تيارها   ولا يشعرون بما يدفع
حياة لنا نالها من فتو   ر قعدت لاتحس ولا تفزع
تمر حوادثها انما   كما خالس البرق اذ يلمع

ومنها :

كسوت حواشيها جدة فراحت تجيش وتستدفم
دخلت بنا فى خلال النفو س فلاحت سرائرها أجمع
وجزت بنا رحبات النفو س وكانت مظاهرها تخدع
وأطلعتنا فى الزوايا على خبايا يقض لها المضجع

ومنها :

وتلمسنا الجرح فى خفة وتأسو برفق فما نجزع
ويبدو لنا الضحك بين السطو ر فا يمسك الشاكل الموجع

*
* *

وكتب المقتطف الاغر فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ عن «هم متولى وقصص اخرى» :

« . . . ذكرنا غير مرة فى المقتطف ان كتابة القصص القصيرة فن من فنون الادب الغربى أقبل عليه كبار الكتاب عند الافرنج مثل «كبلنج» و «بورجه» و «أبانز» وغيرهم . وقد عنى بفنه تيمور نجل العلامة أحمد تيمور باشا بهذا النوع من الادب فنشر فى أوائل هذه السنة كتاب (الشيخ جمعه وقصص اخرى) وهو يحوى قصصا صغيرة رسم فيها صورا مستمدة من الحياة المصرية المدنية والقروية . وأمامنا الآن مجموعة أخرى من قصصه عنوانها (هم متولى وقصص اخرى) هى مثل سابقتها فى صدق الوصف وبساطة الاسلوب . مثال ذلك قصة «الوظيفة أخيرا» فانها قصة شائقة تصف داء من الادواء الاجتماعية الفاشية بين الشبان وهو البحث عن وظيفة من غير استعداد الاضطلاع وأثر القهوات ودور الخلاعة فى أخلاقهم وكيف تؤدى بهم الى ادنى الدركات

*
* *

ونشر الهلال الأغر في عدد يناير سنة ١٩٢٦ عن « عم متولي »

.... في مصر الآن بذور « القصة » المصرية فهنا وهناك على صفحات الجرائد والمجلات نجد محاولات عديدة بعضها موفق وأكثرها مخفق لايجاد قصة مصرية عصرية تصف الحياة الراهنة وتحاول أن تتخلص من ربقة النقل والتقليد .

وفي مقدمة المؤلفين للقصص : محمود تيمور . فقد أرصد نفسه لدرس الحياة المصرية وتصويرها وأبرز في العام الماضي كتاب « الشيخ جمعة » فنال التفاتا لم ينله كتاب من نوعه من قبل في اللغة العربية

وها هو ذا اليوم يصدر كتابا آخر على نسق الكتاب السابق باسم « عم متولي » وهو أيضا جدير بالنجاح ، قد توفق فيه المؤلف الى اتقان عدة صور مصرية ....

*
* *

وكتب العالم الفاضل الأستاذ عبد القادر المغربي بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (الجزء ٣ المجلد الخامس ـ آذار سنة ١٩٢٥).

عن « الشيخ جمعه وقصص أخرى » :

.... رأى المؤلف فن القصص والروايات في أوربا رائجا ذا تأثير حسن في نشر الآداب وتربية الاخلاق فعمد الى الكتابة فيه ... ولا يخفى ان المترجين من كتاب بلادنا انما يعمدون الى الروايات المكتوبة باللغات الافرنجية فينقلونها الى العربية وينشرونها بين أبنائنا وهي في موضوعات ومعان ليست مما ينطبق على أذواقنا ولا مما يلتحم بعاداتنا وأخلاقنا . وهذا ماجعل (مؤلف الشيخ جمعة وقصص أخرى) يعدل عن الترجمة والنقل الى الاختراع والوضع فكتب أقاصيصه المذكورة وأودعها أدبا وتهذيبا وارشاداً فكانت في نقض أحوالنا الاجتماعية خير مثال ينسج على منواله المنشئون القصصيون ...

وكتبت مجلة الزهراء الغراء في عدد ربيع الثاني ١٣٤٤ عن

« عم متولي وقصص أخرى » :

. . . والذي يطالع هذه الاقاصيص ينتقل منها بين صفحات الحياة المصرية ويطلع فيها على خبايا النفوس واسرار الأسر من طبقات مختلفة اختارها الكاتب موضوعا لقصصه التي ان تكن في ظاهرها أداة من أدوات التسلية للذين اعتادوا قتل الوقت بمطالعة الروايات فهي في الحقيقة تحليل علمي لاخلاق جماعات يعرضها المؤلف على قرائه في أشخاص هذه الاقاصيص . . .

*
* *

ونشرت صحيفة الجامعة المصرية الغراء بقلم صاحبها الاديب

الفاضل عبد الكريم افندي أحمد السكري في عدد مايو سنة ١٩٢٥

عن « الشيخ جمعه وقصص اخرى » ما يأتي :

. . . . . ربما كان أميز ما نراه في أسلوب « هذه المجموعة » سهولة عبارتها مصوغة بصيغة فنية تدل على قدرة كاتبها . وقد ينمو بالممارسة الى درجة أكبر من ذلك فيكون له اذ ذاك اسم خليق به في عالم الادب المصري الحديث . فانك تدرك من خلال ما كتبه صورة من النفوس والادراكات العامة والمشاهدات المعروفة والحوادث الاجتماعية من غثها وسمينها كما ترى بين سطورها نموذجا للغة العامة ونموذجا لبلاغة الادباء . وطالما تراه يكسو عباراته جمالا يجذبك لدقة تصويره ويوجه نظرك الى شيء فني فيها وتارة يتهتك في تعبيره فترى الحياة في بعض أثوابها الجميلة وأشكالها الخلابة . . . .

. . . . . واذا علمنا ان اللغة التي كتب بها المؤلف مجموعته لغة بليغة مع سهولة عبارتها دقيقة مع حسن أسلوبها صحيحة التركيب بعيدة عن التعقيد خالية

من الحشو والتعميق الممل حتى انك اذا أردت ان تحكم عليها حكماً صادقاً قلت انها نموذج طيب للغة القصص او للبلاغة الاجتماعية . . . .

*
* *

ونشرت جريدة الاجبشيان غازيت الغراء بتاريخ ٢٩ ــ ١٠ سنة ١٩٢٥ النبذة الآتية بقلم الاستاذ أسبيرو بك سقراط عن « الشيخ جمعه وقصص أخرى » وهي باللغة الانجليزية :

SHORT STORIES.

Mahmud Timur Bey is a scion of a talented family, his father *Ahmed Timur Pasha* being one of the greatest Arabic scholars of this age. Timur Bey has just published a collection of short stories which he has called by the name of the first of them, " Sheikh Gomha „ but I am not sure that this title of Short Stories is the correct one, for they are more like studies in character than mere storyettes. The art of writing short stories has only lately been introduced in the Arabic language, the first to publish them being the late *Mohamed Timur*, a brother of the author and from time to time the Arabic papers now publish a storyette, This collection of short stories is therefore the first of their kind in the Arabic language. Some of these stories reflect great credit on the author, not only as a story - teller, but also as a descriptive writer. The first story, that of Sheikh Gomha, is a good example of the auhtor's literary

abilities, and the last in the book entitled " Compe-tition „ between two young girls for the hand of a young man, illustrates the manner in which marriages are sometimes arranged in native families.

Reblying in his preface to critics, Timur Bey says that the reason why some of his stories are realistic, is becanse he wished to exhibit facts as they are not as they are imagined. He was also taken to task for using in conversation the modern, that is to say the spoken language, but says Timur bey, that is the language in which conversations are held. "Although I am anixous to improve the m0dern language and to bring it nearer to the written language „ says the author " the written language will necessarily continue to embody a number of colloquial words„

Timur Bey has brought out a book which will be read by all with great pleasure. It is printed at the Salafia press, Cairo.

***

وكتب الاهرام الاغر بتاريخ ٢٨ نوفبر سنة ١٩٢٥ عن

«عم متولى وقصص أخرى» :

. . . . . . وقد آنست هذه القصص فى الجمهور ميلا لكونها عبرت عن الحياة المصرية المادية بصورة صحيحة ولانها رمت الى تجسيم العيوب فيها بقصد محاربتها . ولعل هذا الضرب الجديد من التحرير الاجتماعى الاصلاحى يصادف الغرض منه . . . . .

***

وكتبت الأخبار الغراء بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٥ عن «عم متولى وقصص أخرى» :

. . . هو المجموعة الثانية من القصص المصرية التي عكف على كتابتها المؤلف وجعلها غاية حياته الادبية .

. . . وهذا الضرب من القصص يعد بحق ظاهرة جديدة مباركة في الأدب المصرى الحديث . وهى عبارة عن صور من الحياة المصرية شائقة تجمع الى « الريالزم » تغلغلا الى صميم البواعث والمحركات النفسانية .

وقد تضمنت القصص هذا الشخصيات العديدة مناظر بديعة . ثم ان حبكها الروائي قد جاء آية في البراعة والاتقان الفني . وانا نحن الذين دعونا وندعو الى خلق أدب عليه طابع المصرية لاجدر من سوانا بالاغتباط لهذا التوفيق الفني . . . . .

وكتب القهم الاغر بتاريخ ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٥ عن « عم متولى وقصص أخرى » :

والذى لاريب فيه هو ان فن المؤلف قد تطور الى الامام . والحق ان له طريقة خاصة يمتاز بها . قرأنا هذه القصص فأيقنا ان هناك سميا حثيثا نحو الكمال وان كفاءة هذا الفنان تطوى مراحل التقدم طيا . . .

***

وكتبت مجلة روزا اليوسف الغراء بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ عن « عم متولى وقصص أخرى » :

. . . . أراد محمود تيمور أن يخرج للناس مثالا جديدا للأدب الحديث فكانت مجموعة الشيخ جمعة خير مثال توخى فيه هذا الدرب من الادب واتبع فيه المذهب الواقعي الذي يرمي فيه المؤلف الى وصف الحياة كما هي من غير تزويق ولا تنميق .

مضى على كتاب (الشيخ جمعة وقصص أخرى) عام واحد وجاء بعده كتاب (عم متولي وقصص أخرى) وان قارىء الكتابين ليهكم لدى قراءة كتاب تيمور الجديد مقدار الفرق بين الكتابين والشوط البعيد المدى الذي ساره المؤلف في سبيل التقدم والفلاح . . .

***

وكتبت مجلة روزا اليوسف الغراء بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ نبذة أخرى عن الكتابين :

. . . مجموعة أقاصيص مصرية ثانية يصدرها كاتب واحد في بحر عام ! ! ألا يحق لنا ان نطرب نحن من نبغي لأدبنا القومي لونا جديدا يتفق وحالتنا الفكرية الجديدة تلك التي غدت ولا طمأنينة لها في الرجوع الى القديم بعد أن غمرتها نزعة التجديد . أجل ويحق لنا أيضا أن نحيي مجهود الشاب المغامر . . .

. . . قد نخطىء التقدير اذا جزمنا بان الادب العربي قد جهل القصة . . أجل . لقد عرفها ، قصص الغزليين في العصر الاموي والعصر العباسي ، قصص الف ليلة وليلة ، الزير سالم ، أبو زيد ، عنتر . . . الخ كل هذه تشهد بذلك . ولكن بين تلك وبين ماقرأناه في كتابي (تيمور) بونا شاسعا وفروقا عديدة أهمها ان تلك القصص الاولى تلبسها المبالغة في التخيل الى حد تفقدها عنصراً جوهرياً وهو الصدق ، أما حكايات (تيمور) فاقاصيص اتى من ذلك النوع الذي يصح أن يطلق عليه اسم (أقصوصة) لصغر حجمه . ثلاث ورقات أو خمس تضم أسطرا يسيل عدها ترسم مشهدا مما تقع عليه

النظرة الفاحصة في هذه الحياة ، ترسمه بدون كلفة أو مبالغة بل انها لتدقق في هذا الرسم حتى لترى أشخاصه تشعر وتحيا وفق ما يتصوره الخيال الصحيح والعقل الراجح

وتوجد ضمن هاتين المجموعتين قطع وصفية اخلاقية أرى ان (تيمور) قد وفق في رسمها أكثر من سواها . ولا شك انه قد مهر بتلك الموهبة الجوهرية لكاتب القصة والأقصوصة وهي دقة الملاحظة . وريشته الصغيرة لا تخفي عليها ظلال الالوان . وقد يلوم لائم على كاتبنا النابه اتيانه باقصوصه سماها البعض (بالقصة الداعرة) وهي اقصوصة (الأسطى شحاته) وتقع في المجموعة الاولى . واني مع احترامي للوم اللائم لا أرى في هذه الاقصوصة غير مشهد واقعي احسن مؤلفه رسمه . واذا جارينا من يذهب في هذا اللوم فليس لنا اذ ذاك سوى ان نرجم المذهب الواقعي بالحجارة . وهو المذهب الذي تنتسب اليه تلك الاقصوصة .

***

وكتبت مجلة المرأة المصرية الغراء للسيدة بلسم عبد الملك

بتاريخ نوفمبر سنة ١٩٢٥ عن « عم متولى وقصص أخرى » :

. . . وهي القصة الثانية التي اخرجها « المؤلف » الذي لا يدخر وسعا في سبيل تهذيب شبابنا الناهض بما يخرجه لهم من هذه القصص التي تحوي خير الدرس والتي تترك في أذهانهم اكبر العظات بما الخبرة والمباشرة اللتين استفاد منهما المؤلف حتى انه لم يترك أي ملاحظة من غير تعليق ، واستخرج أكبر عظة منها . . .

***

وكتبت مجلة اللطائف المصورة الغراء بتاريخ ٧ ديسمبر

سنه ١٩٢٥ عن « عم متولى وقصص أخرى » :

هي لاتختلف كثيرا عن كتابه الاول « الشيخ جمعة » مما يدل على خبر المؤلف وآرائه الناضجة في احوال المجتمع المصري . فهو يصورها بهذه القصص المفيدة التي لانبالغ اذا قلنا انه نسج على منوال الكاتب الشهيرة (مارك توين) في كثير من قصصه هذه باسلوب عربي شيق ، فنثني على المؤلف . . .

***

وكتبت المجلة الشهرية الغراء بتاريخ ديسمبر سنة ١٩٢٥

عن « عم متولى وقصص أخرى » :

. . . هي المجموعة الثانية من الاقاصيص اللطيفة التي يصدرها حضرة الكاتب محمود تيمور نجل سعادة العالم المحقق احمد باشا تيمور .

ولم تمكنا الفرصة من قراءة قصص المجموعة كلها ولكن ماقراناه منها يدل على ابتكار واضح في فن القصة . اخذنا مثلا قصة عم متولى ونحن في شغل شاغل لنقرأ اسطرا منها ثم نعود اليها بعد الفراغ من عملنا الشاغل ولكن ابت القصة ان تتركنا « وصارت لنا شغلا اشغل » حتى اتينا عليها فعدنا الى ما كنا فيه ، وخفنا ان نتورط في « مهزلة الموت » التي بعدها فألقينا الكتاب ناحية ونحن نعد أنفسنا بالعود الى هذه القصة لنعلم كيف استطاع الكاتب تسمية الموت مهزلة وهي المأساة العظمى والفاجعة الكبرى . وان كان قد اخترع لنا شيئاً يرينا الموت مهزلة فعجبنا المخترع واسم المخترع . . .

***

وكتبت عاصمة الشرق الغراء لصاحبها الاديب الفاضل

عبدالعزيز أفندي حمدى بتاريخ ١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ عن « عم متولى وقصص أخرى » :

... أهدانا حضرة المؤلف محمود تيمور كتابه الجديد (عم متولى وقصص اخرى) فنشكره ونتمنى له الرواج والنجاح. هذه كلمة تقدم بها كثير من المؤلفات ولكن هل هذا كل مايرجوه محمود تيمور لكتابه ؟ لااظن ذلك لان الرجل الذى يمصر ذهنه ويجهد قريحته لاأرب فيه تقويم اعوجاج الاخلاق لايريد الا اهتمام الكتاب عامة والصحفيين خاصة بكتابه ، وهذا ماحدا بنا الى فحص الكتاب فحصا دقيقا وعزمنا ان نصارحه بكل ملاحظاتنا لان مبدأنا الصراحة فى القول مهما كانت مؤلمة ولا نكتفى بشكره وتمنى النجاح له ...

... ماذا يبغى محمود تيمور من وضع هذه القصص وهو الذى لا يرجو من وراء عنائه في كتابتها جزاء ولا شكورا ؟

بالطبع يمكننا ان نستخلص من هذا انه لا يريد الا خدمة مبدأ قويم وهو اصلاح عيوبنا الاجتماعية والاخلاقية ، ولذلك سبر غور العلل والأمراض التى تنخر عظامنا واخذ يعالجها كل منها بأقصوصة تجسم العيب وتصف الدواء الشافى وهذا فى شرعنا واجب على كل كاتب وامانة فى عنق كل مصنف ...

***

وكتب الكشكول الأغر بتاريخ ١٢ يناير سنة ١٩٣٦ عن

« عم متولى وقصص أخرى » :

قصر كثيرون من المؤلفين والمترجمين همهم على وضع الروايات الغرامية او تعريبها من غير نظر الى اجتذاب ميل الجمهور الى قراءتها بما ينشرون من الحوادث المشوقة ولا اصيب فيها للأخلاق وطبع النفوس على الفضائل ، وقد تكون تلك الروايات نكبة على قرائها بما تبثه فى النفوس من الشر وما ترغب فيه من التهتك والفجور ، ونحن فى أيام نهضة تحتاج مداواة الامراض الاجتماعية بروايات وقصص يراد بها الادب ومعالجة الامراض الاجتماعية كقصص « عم متولى » تأليف محمود تيمور ...

﴿ تم الكتاب ﴾

ويليه المجموعة الرابعة من الأقاصيص
المصرية المؤلف وعنوانها :

رجب افندى

١٣٤٤ - ١٩٢٦

المطبعة السلفية . بمصر

فهرس المقدمة

صفحة

صفحة

فهرس الاقاصيص